مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ إبراهِيم

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة إبراهيم

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة إبراهيم

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ
عَذَابٖ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾﴾

ابتدأت سورة إبراهيم بثلاثة من الحروف ﴿الٓر﴾ وهي ثلاثة حروف مقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام ثلاثة أحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر هذا البناء اللفظي بباله، ليدفعه ذلك شوقاً لمتابعة ما بعدها من كلام رب العالمين. وأما عِلْمُ معناها ومرادها فهو عند الله تعالى، إذ هي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، فنؤمن بها، ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر. ومن فوائد ذلك أنها محك واختبار لمن يؤمن بها ويُقرها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: أنه قال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرّج عليها[١]

فمن فوائد ذلك شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿الٓمٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[٢]

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب معناه عنها، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)
(٢) المرجع السابق (١٠٩/١)

أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[١] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم لما يُراد تعليمه إياه، وإخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

وبعد أن ذكر الله تعالى ما استفتح به من الحروف المقطعة، يُشيد سبحانه وتعالى بآيات القرآن الكريم، والثناء عليها بما اتصفت به من الأوصاف الحكيمة العظيمة ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ فابتدأ البيان في الآية الكريمة بتعريف القرآن الكريم، بأنه ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ وهو تعريف من الله تعالى، بأن القرآن الكريم: كتاب. ومن جميل البيان أن تَصَدَّرتِ الآية الكريمة بلفظ الكتاب ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ فأفاد هذا التَّصَدّر التعظيم والتبجيل للقرآن الكريم، وفيه شد الانتباه له، بالتعظيم والإجلال. ولما أن الكتاب من الله تعالى فهو يعني الحجة الثابتة القاطعة، المتضمن للعلم الجليل الوفير، وإلى عظيم ما احتواه، خاصة وأنه نزل من الله العظيم ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ وفيه تعظيم لمقام نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم أن خَصَّه به في التنزيل والتبليغ ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾

وبعد أن ذكر جَلَّ جلاله التعريف بأن القرآن الكريم كتاب ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ أوضح وبَيَّنَ مصدر هذا الكتاب ﴿ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ فهو مُنَزَّلٌ من عند الله تعالى، فلا يجوز أن يُنسب لغير ذلك، كما اشتمل البيان الكريم على تعيين وتحديد الذي أُنزِل إليه هذا القرآن الكريم، وهو ضمير المخاطب ﴿ إِلَيۡكَ ﴾ أي: إليك أيها النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي سيخبركم به أيها الناس. وقد وَجَّه اللهُ تعالى الخطاب مباشرة للنبي عليه الصلاة والسلام ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ ﴾ ليبين ويؤكد به أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسوله عليه الصلاة والسلام، المبلغ إليكم وحيه سبحانه وتعالى، وعلى رأس الوحي هذا القرآن العظيم.

ثم أخبر الله تعالى عن الهدف والمراد من تنزيله ﴿ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ فالمراد من إنزاله عليك أيها النبي ليتحقق به النفع العظيم للناس

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

جميعاً، وهذا امتنان وفضل عظيم من الله تعالى على الناس أجمعين، وقد أسند الله تعالى الإخراج لنبيه عليه الصلاة والسلام ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ أي لتخرج الناس بهذا الكتاب من الكفر إلى الإيمان، لأنه عليه الصلاة والسلام المبلغ والمفسر له، والمرشد والمعلم لهم، وفي ذلك تكريم ورفعة لشأن النبي عليه الصلاة والسلام ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: ليخرج الناسُ بهذا القرآن من ظلمات الكفر والضلالة والجهل والشك، إلى الإيمان والحق والعلم الذي هو النور الذي يسير بهم إلى الحق والخير والنجاة.

فدلالة كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ عامة، لتشمل جميع الظلمات وأنواعها ودرجاتها. وفي شمولية الناس ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ ما يدل على أنها شاملة لجميع جنس الإنسان، مما يدل على عمومية رسالته صلى الله عليه وسلم، وأنها شاملة لجميع الناس. ومن دقة البيان كذلك أن كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وردت بصيغة الجمع، وفي اجتماع صيغة التعميم بجنس الإنسان مع الجمع للظلمات ما يفيد استيفاء جميع أنواع ودرجات الظلمات، بما يفيد أن القرآن الكريم يُخرج كل من تمسك به، قليلاً كان أو كثيراً من الأفراد والأقوام أو المجموعات والجماعات، فإنه يُخْرِجُهُم من جميع أنواع ودرجات الظلمات الدنيوية، فيهديهم بأساليبه ومواعظه وأحكامه وتشريعه إلى النور، ويُخرج الإنسان من ظلمات الكفر إلى الإسلام والإيمان، ومن ظلمات الباطل إلى الحق، ومن ظلمات الجهل، إلى نور العلم والرشاد، ومن ظُلْمِ أناس فيما بينهم إلى العدل، ومن الجور في العلاقات والحقوق إلى العدل، ومن القسوة والجشع إلى رحابة التسامح والتعاطف، في الأسرة، والمجتمع، وفي مجال العلاقة والمصالح العامة، التي منها المهن والأعمال وغيرها، وما يتحقق بذلك من المنافع بين الناس، وكذلك في ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس، وبين العامل والأجير، وبين الغني والفقير، وبين التاجر والْمُتَاجَر به، والْمُتَاجَر إليه به، ومن ظلمة القضاء بين الناس إلى العدل، ومن ظلمة الاعتداء على الأنفس والأموال والعقول والأعراض إلى حفظها وصيانتها، ومن ظلمة الخوف والرعب إلى نعمة الأمن. فإن دلالة كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ استوعبت جميع أنواع ودرجات الظلمات المضادة للنور والحق، واستوعبت ما يستجد منها، ما بقيت الحياة الدنيا.

ثم بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما يخرجون منه، ذكر عَزَّ وجل ما يخرجون إليه بهذا الكتاب العظيم ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يُخْرِجُهم إلى نور الإيمان، ونور الهداية ونور اليقين ونور العلم، بل يشمل بأحكامه ما تستنير به النفوس، وما تستنير به الجوارح، وما يحقق لهم به نور الطاعة، ونور الطريق المستقيم، الموصل إلى الجنة، وإلى نور التعامل، ونور الحقوق والحدود والضوابط، والمسؤولية المناطة بكل أحد، وما يجب له، وما يجب عليه لغيره، وما يجب له عند غيره، وما يجب لغيره عنده. بل ومن دقة البيان أن جاء النور مفرداً، بينما الظلمات جمع ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لأن الظلمات متعددة في

مصدرها وأنواعها، وأما نور الله تعالى فهو واحد في مصدره، وفيما يُوصِل إليه به، فدين الله تعالى واحد، وليس بأنواع متعددة.

ومن غزارة البيان ورود الانتقال والتغيير بكلمة الإخراج ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ لأن الإخراج يقتضي الانتقال والمفارقة من شيء لشيء، ومن حال إلى حال، وما يلزم من لوازم الترك، فيترك الأول، وينتقل للثاني، كما أن المفارقة للأول تقتضي قطع العلائق به، وترك الكفر، والخروج منه، ولزوم الثاني الذي هو الإسلام، ولزوم منهجه.

ثم يُخبر الله تعالى بمشيئته ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فخروجهم من الظلمات إلى النور هو ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بتوفيقه، وهدايته، ولطفه بهم، ونقل الشوكاني قول الزجاج رحمهم الله تعالى، أي: بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان[1] فلو لم يلطف الله تعالى بالإنسانية بهذا الكتاب وبالرسول محمد صلى الله عليه وسلم لاستمروا في ظلمات الكفر والجهل.

وليعلم الإنسان من قوله تعالى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أن كل شيء يسير في الكون هو من بعد أن يأذن الله تعالى، فإن للإنسان مشيئة، ولكن مشيئته تحت مشيئة الله تعالى. فما أفقر العبد لربه في كل شيء وشأن.

ومن رحابة معنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أنها تُعَلِّم العبد أن أحداث الدنيا وأحداثه التي منه، مربوطة بمشيئة الله تعالى، وكذلك رغباته، ودوافعه، وخوفه ورجاؤه وآماله مربوطة بإرادة الله تعالى، مما يربي في المؤمن التعلق بالله عَزَّ وجل في كل أمر. كما أن جملة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ تبين صفة الربوبية، بأن الله تعالى هو ربهم، الذي رحمهم بهذا الكتاب، وبهذا النبي الرحيم بأمته صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين تبارك وتعالى ما سيؤول بهم هذا النور لمن اتبع هذا الكتاب العظيم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فإنه يؤدي ويسير بهم إلى دين الله تعالى، وهو طريق الله تعالى الواضح الموصل إلى رضاه عَزَّ وجل، الذي يتحقق به دخول الجنة. وما يرتبط به من التوفيق والتسديد والإنعام والسعادة في الدنيا والآخرة.

وقد رفع الله تعالى قدر الصراط بأن نسبه إليه ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فأضافه إلى اسمين كريمين عظيمين من أسماء الله تعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فالعزيز أي: المنيع في ملكه وسلطانه، والغالب على أمره، فلا غالب له أبداً، فمن أخذ بهذا القرآن فقد أخذ بصراط العزيز القوي الغالب الذي لا يُغْلَب جنده، وأنه

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٣/٣)

قد اهتدى بهديه عَزَّ وجل، وحظي بنصره وقوته وولايته وهدايته وتوفيقه. وأما الحميد، فهو: المحمود على جميع أفعاله وأقداره وأحكامه، والمحمود بكل لسان، والذي له المجد والحمد كله، فلا يُحمد غيره على كل شيء، فهو المتفرد بأن كل الذي منه محمود، فيستحق الحمد والثناء والشكر العظيم. والعزيز والحميد على وزن فعيل، ليفيد المبالغة في دلالته وحقيقته تبارك وتعالى. فهذا الصراط المستقيم هو صراط من له تلك الصفات التي تحملها أسماؤه وصفاته عَزَّ وجل.

ومن بلاغة هذه الآية الكريم هو دقة بيانها، مع دقة التفصيل، ودقة المفاهيم، ودقة الدلالات، وعمق البيان، وجزالته، مع كثرة معطياتها، فهي آية إعجاز من آيات القرآن الكريم المعجز في جميع آياته. فسبحان الذي أنزل هذا الكتاب العظيم بهذه الدقة المتناهية المتعاظمة.

ثم يخبر الله تعالى بكمال صفاته، وعظيم ملكه، ومتوعداً بالعذاب الشديد لعباده الذين لا يعترفون بما أخبر به عن ذاته الكريمة العظيمة، وعن ربوبيته ووحدانيته، والإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء به عن ربه تبارك وتعالى. ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فالذي أنزل الكتاب على نبيه صلى الله عليه وسلم، وما تضمنه من عظيم العلم والبيان والهداية والدلائل والحجج والبراهين لِيُخْرِجِ الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراطه المستقيم، وإلى دين الله العزيز الحميد فإنه الله الذي له جميع ما في السماوات وما في الأرض. فهو المنفرد بالعبودية وكمال الطاعة، والذي لا يستحق العبودية غيره، لأن مَن له ما في السماوات والأرض فهو الملك الذي له الملك وحده، يتصرف ويحكم فيه كيفما يشاء، فهو تقرير بالملك الذي مفاده الاستنكار لمن خالف باعتقاده وفعله ذلك.

وقد بدأ البيان بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ فتَصَدَّر بيان الآية الكريمة بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ ليدل على عظمة هذا الاسم، وهيبة الله تعالى وجلاله، وعظيم صفاته، كما أن في مجيئه بعد العزيز الحميد، والتصاقه بهما أفاد المزيد من التعظيم والتفخيم. وجاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ بالخفض، أي بكسر حرف الهاء، وذلك باعتبار أنه تبعاً لقوله تعالى ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهناك من قرأ برفع حرف الهاء في لفظ الجلالة، باعتبار انفصاله عن الآية التي قبله، وهما قراءتان صحيحتان مشهورتان، قاله ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى وغيره من أهل التفسير(١)

وجملة ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ احتوت على ما ارتفع من مُلْكِه عَزَّ وجل، مما ترون ومما لا ترون، فاستوعبت واستقصت كل شيء اعتلى وارتفع من مخلوقاته، بأنه تحت طائلته،

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٥٨٩–٥٩٠)

كما استوفت ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الأرض جميعها، فما كان على ظهرها، وما في باطنها، وجميع ما ترون، وجميع ما غاب عنكم وانزوى من الأرض، وما خفي عنكم في باطنها. فهي أبلغ بيان في وصف احتواء الملك، فإن ذلك له وحده سبحانه وتعالى، ليدخل في ذلك الإيجاد والنقص، والأخذ، والتكثير والتقليل، والأرزاق، والآجال، فمن له الملك كله فإن الرجوع له وحده لا شريك له.

ثم بعد بيان الحق وتجليته توعد العزيز الحميد من يكفر به ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ فهذا وعيد وتهديد من الله تعالى للكافرين من عذاب شديد في وقوعه وألمه وأثره، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن الويل ﴿وَوَيْلٌ﴾: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعَبَدَ معه غيره، من عذاب الله الشديد[1] فليس لهم بعد الحجة والبيان إلا العذاب الشديد. مما يبين عدل الله تعالى، ورحمته التي استوفت الإنذار والتعليم بالحجج والبراهين لما يجب على الإنسان.

ويستمر ويتوالى تدقيق وتحقيق الوصف للذين لهم العذاب الشديد من الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فمن عموم صفاتهم التي حوت صفات الذم كلها هو إيثارهم الدنيا على الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾ فهؤلاء الكفرة الذين لهم عذاب شديد، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، فيقدمونها استحباباً وتفضيلاً لها على ما في الآخرة من نعيم، ودلالة كلمة ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ تفيد المفاضلة في التفضيل بين الدنيا والآخرة، فاستطابوا الدنيا على الآخرة، وقدموا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي، لتعطي كلمة ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ الإمعان في التفضيل، مع سرعة المبادرة للدنيا، بل وتضمنت كلمة ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ وصف مشاعرهم القلبية، بالاستحباب والإيثار والتقديم.

ومن دقة البيان وجزالة الوصف لحالهم المنبثق من مشاعرهم أن انتقل البيان إلى ما يخص مشاعرهم ومطالبهم من محبتهم للدنيا على الآخرة، دون أن يذكر عَزَّ وجل ما يتعلق بوجوب محبتهم لربهم سبحانه وتعالى، فقد تجاوز الوصف لما يجب عليهم لله تعالى الذي خلقهم ورزقهم، فتجاوز بهم إلى مواطن الاستحباب الذاتي، والنفع الخاص بهم. فدل الوصف على استحبابهم الدنيا على محبة الله تعالى وطاعته عَزَّ وجل.

(١) المرجع السابق (١٣/٥٩٠-٥٩١)

ومن خصائص صفاتهم السلوكية تجاوزهم عَمَّا يخصهم إلى خصوصية غيرهم ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ فكرهاً في الدين، ورغبة منهم في أن يماثلهم غيرهم، بادروا بصد غيرهم عن دين الله تعالى الذي ارتضاه وشرعه ربنا لعباده. وكلمة الصد، تعني: صرف الغير عن الشيء، وإبعادهم عنه، بل وإبعاد تفكيرهم فيه، لتستوعب كلمة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ جميع سُبُل وطرق الصد، من التشويه، والتحذير، والتخويف، وتحسين أضداده، وتجميلها، وترغيبهم فيما هو ضد سبيل الله تعالى. والهدف والغاية من صد غيرهم عن سبيل الله تعالى، فيماثلوهم في استحبابهم، هو من أجل رغبتهم في الاعوجاج ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ فمرادهم هو طلب الاعوجاج عن الطريق المستقيم، بأن يكون منهج غيرهم زيغاً مماثلاً لهم، باستحباب واستهواء ملذات الدنيا، وتحقيق ما يرونه من الشهوات والأغراض على المنهج الذي يرسمونه لأنفسهم وغيرهم. مما يكشف ويبين أن الإنسان الزائغ عن الطريق يحب المماثلين له، ويميل إليهم، ويحب تكثيرهم، بل ويحب كذلك أن يزيغ المهتدي كما زاغ هو، فيزين لهم حاله، وما هو فيه من الضلال، ترغيباً وتحبيباً، كما يفيد ذلك ويكشف أن أهل الضلال لا يحبون أهل الحق، ويتمنون لو يزيغون كما زاغوا عن الحق، ويخرجون منه، ولذلك فإنهم مجتهدون وجادون في إحداث الزيغ والفساد بين الناس. وفي هذا كشف وتحليل لواقع الزائغ، وما يختلج في نفسه، ويدور في عقله وتفكيره، مما يفيد الحذر من أهل الزيغ والضلال.

وحال هؤلاء الكفار أنهم ممعنون في الضلال ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ فهؤلاء في منهج الضلال، المخالف والمضاد للحق، موغلون فيه، حتى أصبحوا في أعماقه، فابتعدوا بعداً عظيماً عن الحق، فجملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ تحمل دلالات عميقة في توضيح قدر وعمق بُعْدَهُم عن الحق، وانحدارهم العميق في الضلال، فإن اسم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ يفيد الجمع، مع دلالة البعد، فأولئك الكافرون البعيدون عن الهدى، والممعنون في الضلال. وفي وصف حالهم بأنهم في ضلال، ما يدل على بعدهم وعمق انغماسهم في تيه الضلال، الذي لا هداية فيه، فقد فقدوا وجهتهم الصحيحة، وانحرفوا عن طريق النجاة، وهو صراط الله العزيز الحميد، وقد وردت كلمة ﴿ضَلَـٰلِۭ﴾ نكرة، ليدل على عموم الضلال، فيستوعب مقاديره وأنواعه وأشكاله كلها. ثم أُضيف لها البعد ﴿ضَلَـٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ ليكشف عمق التوغل في الضلال، ليعطي ويبين في المقابل عمق ومقدار البعد عن الحق، فقد تباعدوا عنه بعداً لا يدركونه. وبالتالي استحقوا العذاب الشديد الذي توعدهم الله تعالى به.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى تقرير وإثبات حقيقة جنس المرسلين من الله تعالى، بأنه ما أرسل الله تعالى من رسول إلا كان من قومه، ويتكلم بلغتهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ فيخبر الله تعالى عباده الذين بعث فيهم نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أنه كسائر من سبقه من المرسلين، يتكلمون بلغة أقوامهم، لأن الله تعالى يصطفي رسولاً منهم لهم، فليست الكتب حكراً على لغة معينة محددة، وكذلك المرسلين. فإن كنتم تعتقدون بأن الرسالة وكُتُب الله تعالى بلسان واحد، فإن ذلك ليس بصحيح. وفي هذا دقة في تعليم القوم، وإزالة الجهل المركب، والاعتقاد والظن الخاطئ، مما يفيد أهمية إزالة ما يعلق في بعض أذهان المدعوين والمخاطبين والمتعلمين من مفاهيم خاطئة، قد تمنعهم من إدراك الحقيقة، وتعيق تعلمهم، وتمنع وتحجب فهمهم للحق. وهذا من لطف الله تعالى وعنايته، ودقة كتابه القرآن الكريم في إزالة الموانع من المفاهيم الخاطئة. فما من رسول إلا وقد أرسله الله تعالى بلسان قومه.

وكلمة اللسان تفيد اللفظ الذي يتلفظ به الإنسان حتى يخاطب به غيره، وهي اللغة، وجاءت بلفظ اللسان ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ لتعطي دقة المقصد، وجمالاً في السياق، بل من دقة البيان أن اللسان جاء مفرداً، ليبين أنها اللغة الواحدة المشتركة للقوم، وإن تعددت اللهجات، فالذي يجمعهم هي اللغة الأم. فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم مبعوث بلغة قومه العربية، كمن سبقه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام. ومن دقائق البيان أن جملة ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ جمعت بين بيان لغة الرسول، وبين أنه من قومه، من غير حاجة للتكرار، كأن يُقال: وما أرسلنا من رسول إلا من قومه وبلسانهم. أو وما أرسلنا من رسول إلا بلسانهم، ومنهم،

حتى يمنع احتمال أن يكون الرسول من غير القوم. فبين النص الكريم ذلك في أوجز وأبلغ عبارة، من غير إعجاز في البيان، ولا إطناب في الكلام.

ثم ذكر الله تعالى الهدف والحكمة والغاية من كون الرسول من نفس القوم الْمُرْسَل إليهم، وبلسانهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليوضح لهم الرسالة، وما تضمنته من التشريع الذي أمرهم الله تعالى به. فما أرسلنا إليكم الرسول صلى الله عليه وسلم إلا ليبين ويوضح لكم الرسالة، كما أنه ما أرسلنا من الرُّسُل قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا ليبينوا لأقوامهم الرسالة التي أرسلهم الله تعالى بها، فأين وجه الغرابة؟ وأين الموجب لإعراضكم عن دين الله تعالى؟ وفي هذا معالجة لمن يعتقد أن الرسالة لا تكون إلا بلغة من سبق.

وكذلك فيه بيان لأهمية لغة الخطاب، وأهمية البيان بأن يكون وفق ما يفهمه المخاطب، وأهمية العلم بلغات الآخرين من الأمم، حتى يتم تعليمهم هذا الدين بكل وضوح، وإزالة كل شبهة، وعائق فكري يحول بينهم وبين معرفة هذا الدين الحنيف. ولما أن الله تعالى جعل هذا الدين هو خاتم الأديان، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، جعل اللغة العربية محفوظة ما بقيت الحياة الدنيا، حتى أنه لتندثر لغات، وتتجدد لغات، وقد تظهر لغات، ولكن اللغة العربية محفوظة بحفظ كتاب الله تعالى، وكذلك لما تميزت به من الجمال في النطق والصوت، ودقة البيان، وكثرة ألفاظها المعبرة عن دقائق المقاصد والمراد، وهي أوجز اللغات عبارة، وأفصحها لساناً وبياناً. كما أن في هذا امتنان من الله تعالى على العرب، بأن جعل خاتمة الأديان وخاتم الأنبياء من العرب. والنبي محمد صلى الله عليه وسلم بُعِثَ وأُرسِل بلغة قومه، وتجاوزت بعثته قومه إلى الناس جميعاً. ومقابل ذلك عليهم العلم بشريعته، والعلم بلغات غيرهم، ونقل هذا الدين إليهم، وأصبح العلماء هم من يقوموا بمقام النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (وإن العلماء ورثة الأنبياء)[١] والنبي محمد صلى الله عليه وسلم بُعِثَ وأُرسِل بلغة قومه، وتجاوزت بعثته قومه لتكون للناس جميعاً، كما قال تعالى في سورة سبأ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ثم يخبر الله تعالى ويبين لعباده أن مشيئته وإرادته فوق إرادتهم ومشيئتهم، حتى في الضلالة والهداية ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فمن منع الله تعالى عنه الهداية وأبقاه على ضلاله فبمشيئته سبحانه وتعالى. قال الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: فيضل اللهُ من يشاء، ممن لم ينقد للهدى[٢] فقد ضل ببقائه على ما كان عليه من الضلال، وبسبب امتناعه عن الهدى، أضله الله

---

(١) الأبو داود، سنن أبي داود (٤/٥٧-٥٨) برقم (٣٦٤١)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٦/٣)

تعالى، ولو شاء الله عَزَّ وجل لألزمه وأرغمه على الخروج من الضلالة إلى الهداية، فضلالة من ضل ليس خارجاً عن مشيئة الله تعالى وقدرته، بل إضلاله وعدم توفيقه للهداية هو جزاء له، لاستحبابه وتفضيله الحياة الدنيا على الآخرة، وامتناعه وعدم رغبته في الهداية، فأضله الله تعالى عقوبة له، بسبب امتناعه فلم يوفقه، لأن الله عَزَّ وجل لم يضله ابتداء كما جاء في سورة فصلت ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فليس الله تعالى بظلام للعباد، وإلا لما أرسل إليهم المرسلين، وأنزل الكتب.

وكذلك فإن التوفيق للهداية مِنَّة من الله تعالى ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ أي: يوفق من يشاء للهداية، ولو شاء سبحانه وتعالى أن يمنعه عن الهداية لمنعه، بقدرته ومشيئته، مما يبين أن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة، فمن امتنع وضل فإنه ليس لقصور في مشيئة الله تعالى، وخروج عنها، بل هو بمشيئته عَزَّ في علاه، وهو الذي أضله بسبب استحبابه الدنيا على الآخرة. وأن من اهتدى فبتوفيقه تبارك وتعالى، مما يبين فقر العبد لربه، بأن يلزم سؤال ربه عَزَّ وجل بأن يوفقه ويهديه ويثبته على الهداية، ويُحسن خاتمته لأنه ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو العزيز الذي لا يغالبه أحد، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. والحكيم الذي أفعاله وإرادته وتقديره وتدبيره تسير وتجري على مقتضى الحكمة، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل للهداية. ويبين دلالة ذلك قوله تعالى في سورة التكوير ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فللعبد مشيئة، ومشيئته تحت مشيئة الله تعالى.

وينتقل السياق في ترابط واندماج إلى رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، فقد أرسله تبارك وتعالى إلى قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، كما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ليتقرر بذلك أن وجه الإنكار عند من كفر غير مستقيم. فأين وجه الإنكار إذاً؟ فليس هناك وجه لكم لتنكروا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فبدأ البيان من الله تعالى بأداة التحقيق والتأكيد ﴿ وَلَقَدْ ﴾ فلقد ثبت وتحقق وتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الله تعالى أرسل موسى لقومه عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ فرسالة موسى عليه الصلاة والسلام مشتملة على الحجج والبراهين التي هي آيات الله تعالى ﴿ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ التي منها العصا، وإخراج يده من جيبه بيضاء من غير سوء، وكتاب التوراة، وكذلك

أرسل الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم بالحجج والبراهين، وأولها برهاناً وحجة وآية، هو القرآن الكريم، وهم أهل اللغة التي تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بمثله، ولو بسورة واحدة. ومن الآيات الكونية انشقاق القمر، وإخباره بعيرهم في حادثة الإسراء والمعراج، وحنين الجذع.

وأوضح تبارك وتعالى أن الغرض والهدف في رسالة موسى هو نفس الغرض والهدف في رسالة محمد عليهم الصلاة والسلام، وكذلك سائر المرسلين ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فالمراد من الرسالة والرسول هو إخراج الناس من ظلمات الكفر والجهل والظلم والجور إلى نور الله تعالى، المتضمن للإيمان وتوحيد الله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، وتطبيق شريعته، ونشر العلم والعدل والأمن والأمان على النفس والعرض والدين والمال ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وذكرهم وعظهم بالأحداث التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وهي جملة في غاية العمق من المعاني والدلالات، وجمال بنائها وسياقها. فالتذكير يكون بشيء سابق معروف. فتعني أيام الله تعالى الأحداث الواعظة من النِّقَم والنِّعَم، فالنقم بالكافرين، والإنعام على الأنبياء والمؤمنين، كما ذكر الإمام الطبري رحمه الله تعالى: عظهم بما سلف من نِعَمِي عليهم في الأيام التي خلت، فاجتزئ بذكر الأيام عن ذكر النعم التي عناها، لأنها أيام كانت معلومة عندهم، أنقذهم فيها من آل فرعون، وإغراقه وجنوده، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم[١] فهي شاملة جامعة لأيام مذكورة، لا يمكن أن تُنسى، لتميزها بقوة ما حدث فيها، من هزيمة العدو، وتحقيق النصر، مع اشتمالها على نعمة الْمَن والسلوى، وتظليلهم بالغمام، وغيرها من أحداث الأيام، وأما في نسبة الأيام إلى الله تعالى فإنها لبيان تفضله وإنعامه عَزَّ وجل بما أنعم، وبما أحدث من الأحداث التي لا يمكن أن تُنْسَى وتُمحى إلا بإذنه، وذلك لقوتها وشهرتها. وهي كذلك تحمل مساحة من الدلالات المتضافرة، فذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى ثلاثة أقوال في دلالتها: الأول: أنها نعم الله تعالى، والثاني: أنها وقائع الله في الأمم قبلهم، والثالث: أنها أيام نعم الله عليهم، وأيام نِقَمَهُ ممن كفر من قوم نوح وعاد وثمود[٢]

وسياق قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ فيها تعظيم وتهويل لتلك الأيام، وفي تخصيصها عن غيرها لما حوته وتميزت به تلك الأيام عن غيرها بالأحداث والإنعام التي تم فيها قهر العدو، وإعزاز الدين والنبي، ومن معه من المؤمنين، لتكون عبرة وعظة وآيات ودلالات وحجج لهذا الدين وللنبي صلى الله عليه وسلم. ومن مزيد فوائد قوله تعالى ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أن المتأمل في دلالة مساحة أيام الله تعالى

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٥٩٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٥٥)

يجد أنها تسع لما يخص الفرد، وما يخص القوم، وما يعم الناس جميعاً، ففيما يخص الفرد أنه يجد في خاصة حياته أياماً لا ينساها، لقوة أحداثها عليه، بنعم من النجاة من مخاطر أحدقت به، أو نعمة عطاء، أو أهوال أو مصائب واعظة، تعيده للحق، وتنبهه على خطر ما هو فيه، فإنها أيام الله الواعظة. وقد تكون على مستوى الأسرة، وقد تكون على مستوى الجماعة أو المجموعة على اختلاف نوعها، وقد تكون على مستوى القوم، وقد تكون على مستوى الأمة، وقد تكون على مستوى البشرية، كحدوث الأوبئة العامة، والمعافاة منها.

إن مضمونها يشتمل على قوتي الترغيب والترهيب، فهي تحمل التهويل والتخويف حين النظر إلى أيام الله تعالى فيما أصاب بعض الأقوام من العذاب، وفي نفس الوقت تلفت الانتباه لأيام الله تعالى التي حملت الرحمة والنجاة والعطاء من الخير، والإخصاب بعد الجدب والقحط. فإنها أيام الله تعالى الواعظة، التي تحتاج أن يتذكرها الإنسان ليتعظ بها، ويتربى على الخير والصلاح ولزوم الطاعة لله تعالى. إن في أيام الله تعالى لآيات لمن تدبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

وتنتهي الآية الكريمة بخاتمة غاية في الوعظ والإرشاد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: إن في ذلك التذكير بأيام الله تعالى ﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات عظيمات، دالة على وحدانية الله تعالى، وكمال قدرته، وقوته وعزته، وعظيم سلطانه، وصدق الرسالة والرسول الذي أُرسِل بها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فإن في التذكير بأيام الله تعالى، وبالرسالة والرسول، والآيات التي جاء بها المرسلين، وما تضمنته من غاية وأهداف لإخراجهم من الظلمات إلى النور، لآيات كافيات لمن جمع بين الصبر ولشكر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فتلك الآيات كافية لكل من صبر في الضراء، وشكر في السراء، لتفيد أهمية الصبر والشكر في ترك الكفر والتمسك بمنهج الله تعالى، فشملت من صبر عَمَّا تهواه النفس واعتادت عليه من الباطل، وصبرت عن المعصية، ولزمت الطاعة بالصبر عليها، واستيقنت واستشعرت نعمة الله تعالى فيما أعطى، وفيما أرسل وأمر، وفيما رزق وأنعم من الحياة والهداية الموصلة لحسن الخاتمة والجنة، وفيما رزق من الإنعام في المال والأبدان والأولاد، وغيرها من نعم الله تعالى التي لا تُعَد ولا تُحَد، مستشعراً لعظمتها فشكرها، فإن الصبر والشكر كافية لمن تحلى واتصف بها في أن يسلك مسلك الخير والحق.

مما يفيد أن الاعتبار بالآيات والحجج يستلزم لزوم عاملين مهمين، هما: الصبر والشكر، وأن طاعة الله تعالى تقوم على الصبر في الضراء، والشكر في السراء. بل جاء الصبر بصيغة المبالغة ﴿صَبَّارٍ﴾ التي تفيد كثرة الصبر، وتكراره ولزومه، فالإنسان الصبار، هو الكثير الصبر. وكذلك ﴿شَكُورٍ﴾ فإن الإنسان

الشكور، هو الكثير الشكر، المبالغ في كثرة الحمد والثناء على الله تعالى، بشكره على ما أنعم من النعم التي لا تُعد ولا تُحصى. فصاحب هاتين الخصلتين منتفع بآيات الله تعالى لكثرة انتفاعهم بها عن غيرهم.

ثم يخبر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يُخْبِر قومه بشأن موسى عليه الصلاة والسلام عندما خاطب موسى عليه السلام قومه، مذكراً لهم بنعمة النجاة من آل فرعون ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فقد التزم موسى عليه الصلاة والسلام بما أمره ربه تبارك وتعالى فَذَكَّرهم بأيام الله تعالى التي أنعم بها عليهم، أي فاذكر لقومك أيها النبي بما قام به موسى عليه السلام من تذكير قومه، ليفيد: أن هذا هو منهج الأنبياء، ولذلك فأنا أذكركم به، حتى تتعظوا بذلك. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فاذكر أيها النبي لمن تعظهم وترشدهم بما قام به موسى عليه السلام من تذكيره لقومه بما أنعم الله تعالى به عليهم ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فقد خَلَّصكم من أهل دين فرعون وطاعته، فإن نجاتكم منهم، وكذلك طريقة إنجائكم نعمة ومِنَّةٌ وعبرة عظيمة، تستوجب منكم كمال الطاعة والاتباع.

ثم فَنَّدَ لهم شيئاً مما خَلَّصهم ونجاهم منه ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ فأنجاكم يا بني إسرائيل مما كان آل فرعون يستعملونكم فيه من الأعمال والأشغال المهينة والشاقة، وذلك بقهرهم واستعبادهم، وإذلالهم بالأعمال والمهن الشديدة. وكلمة ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ تعبر عن قوة وجبروت المعاملة، وهي من السوم، وهو الذهاب والابتغاء الْمُتَعَمَّد من ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي الاتجاه بهم نحو شر العذاب وأشده، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وهو استعبادهم واستعمالهم في الأعمال الشاقة[١]

ومن النعم كذلك أن الله تعالى نجاهم من حالة ثانية من العذاب ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ فمع إذاقتهم أشد العذاب بالأعمال الشاقة، كانوا يقتلون مواليدهم من الأبناء، وأُفْرِدَ الذبح بالتخصيص عن شمولية

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٦/٣)

دلالة سوء العذاب، لبيان أشد مفردات وآحاد الأنواع من العذاب، فيرى الأبوان ابنهما يُقتل عنوة. بينما يتركون النساء للخدمة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: يستثنون النساء من القتل، من أجل الخدمة والإذلال. فالاستحياء هو الترك للحياة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفي ذلك الإنجاء من آل فرعون لكم، بعد ذلك القهر والعذاب الذي وجدتموه ﴿بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة عظيمة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فأنقذ الله بني إسرائيل من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: اختبار عظيم، ويحتمل أن يكون المراد هذا، وهذا، والله أعلم. كما قال تعالى في سورة الأعراف﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾[1] مما يفيد أن دلالة كلمة الابتلاء قد تكون بالإنعام، وقد تكون بما تكره النفس.

وفي هاتين الدلالتين ما يفيد عمق البيان في القرآن الكريم، إذا حوت وشملت الدلالة: الابتلاء الواقع عليهم من فرعون، بأنه كان اختباراً من الله تعالى لهم، وكذلك شملت ما أنعم الله تعالى به عليهم من الإنجاء، وكان ذلك بسياق واحد، وفي توافق بين الدلالتين، من غير تكرار للنص، ولا تعارض بين المفهومين. وهذا من غزارة الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وقد وصف الله تعالى ذلك الابتلاء بالعظيم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فهو ابتلاء عظيم من كلا الوجهين، فإن كان من جهة شدته، فإنه عذاب جسدي ونفسي عظيم على النفوس، وإن كان في كونه إنقاذ لهم من الله سبحانه وتعالى من ذلك العذاب الشديد، فإنها نعمة عظيمة، يعجز عن شكرها بنو إسرائيل. فاستوفت دلالة النص مقصدين بأسلوب غاية في الدقة البلاغية التي تكونت بها جملة بيانية لا إسهاب فيها ولا نقص.

وبعد ذلك البيان من الله تعالى يحث عباده على أن يشكروه على ما أنعم به عليهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: أذن وأعلم ووعد، فقد آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، بالزيادة من الخير على الشكر، وبالعذاب لمن كفر. ومن غزارة دلالة كلمة ﴿تَأَذَّنَ﴾ أن فيها زيادة في معنى الإذن والإعلام، فأنها مبالغة في الإذن والإعلام، قال الشوكاني رحمه الله

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤٢)

تعالى: وإذ أذن ربكم إيذاناً بليغاً، تنتفي عنه الشكوك، وتنزاح الشبه[١] وفي هذا البيان التوجيهي من الله تعالى بهذا لسياق المبالغ فيه ما يؤكد به أن ما تأذن به وأخبر عنه هو عاقبة الشكر، وعاقبة الكفر ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فلئن تحقق منكم الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليكم ليزيدنكم من الخير والتوفيق والهداية.

بل ومن سعة رحمة الله تعالى وكرمه وجوده وإحسانه أن كلمة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وردت بصيغة الإثبات، أي: إثبات التحقق من تحصيل الزيادة للشاكر، فهو وعد متحقق من الله تعالى. وكذلك وردت من غير تقييد، ولا اقتصار على نوع أو مقدار فيما يزيد الله تعالى منه، لتستوعب بذلك جميع ما يُكْرِم اللهُ تعالى به الشاكرين من عموم الفضل والخير الذي لا حصر له: سواء مقداراً أو نوعاً. ولذلك تعددت أقوال العلماء في نوع هذه الزيادة، قال الحسن، وعلي بن صالح رحمهم الله تعالى: لأزيدنكم من طاعتي، وقال ابن جرير الطبري: لأزيدنكم من أسباب الشكر ما يعينكم عليه[٢] وقال الربيع رحمه الله تعالى: لأزيدنكم من فضلي، وقال مقاتل رحمه الله تعالى: لأزيدنكم خيراً في الدنيا[٣] وكذلك عمم الله تعالى شكر العباد له سبحانه وتعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ليشمل ويستوفي جميع أنواع الشكر، ما كان باللسان، وما كان بعمل الجوارح من الطاعة والامتثال لله تعالى فيما أمر وفيما نهى. وهذا من الإعجاز البياني لقوله عَزَّ وجل ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ومن روائعه ودقائقه أنها تفيض استيعاباً لكامل المراد من غير إطناب في الكلام، ولا نقص عن تحقق وبلوغ المراد، وتحقيق الغاية والهدف في الإعلام والبيان. وفي هذا بيان من الله تعالى بأن زيادة النعم تكون بشكر الله تعالى عليها، وأن من أراد الزيادة فعليه الإكثار من الشكر لله تعالى.

وأما حال أنكم كفرتم أيها العباد بما أنعم الله تعالى به عليكم، فلم تشكروا نعمة الله عَزّ وجل، فإن العذاب مصيركم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولئن كفرتم بما أنعم الله تعالى به عليكم، وجحدتموها، فإن عذاب الله تعالى شديد عليكم. ومن غزارة البيان أن جاء الوعيد بالعذاب عن طريق أسلوب التعريض ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ليفيد التحذير، وهو أوقع في النفس في هذا المقام. وورد العذاب عاماً، ليكون الخوف منه أكثر وقعاً وأثراً على النفس، فقد يكون بسلب النعمة، وهو عذاب، وقد يكون بعدم التوفيق، وهو عذاب،

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٦/٣)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٠٠/١٣-٦٠٢)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٦/٤)

وقد يكون بإلحاق الضرر، وهو عذاب، وقد يكون بالهلاك، وقد يكون بما لا يخطر على البال من العذاب. وهذا من الإعجاز في التأديب و في البيان، وفي المعالجة والعلاج، وفي الترغيب والترهيب، فإعجازه حاصل وثابت من كل وجه. وورد الكفر ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ مقابل الشكر ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ ﴾ ليفيد الكفر هنا جحود وإنكار النعمة، بالتمرد والعصيان، والخروج بها عن طاعة ومنهج الله تعالى، بينما أفاد الشكر مقابل النعمة: الاعتراف، والعمل بها وفق مراد الله تعالى، عملاً وقولاً.

وتأتي هذه الآية الكريمة على محملين ذكرهما الشوكاني ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أنها قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام لقومه، وهو معطوف على نعمة الله، أي: أذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. وقيل معطوف على إذ أنجاكم، أي اذكروا نعمة الله عليكم في هذين الوقتين، وقيل هو من قول الله سبحانه وتعالى، أي واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم إذ تأذن ربكم[١] وسواء كانت على لسان موسى عليه السلام، أو خطاب من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يُخبر أمته بذلك، فإن المعنى واحد لا يختلف. بل كشفت الآية الكريمة بالمعنين بلاغة عظيمة للنص الكريم، إذ أعطت المعنين بحسب ارتباط الآية الكريمة بما قبلها، فقد ورد سياقها لتحمل هذين الوجهين من الدلالة، فيكون ذلك من قول موسى عليه السلام لقومه، ومن قول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ليخبر به أمته. فسبحان من أعجز بكلامه عباده.

ويخبر الله تعالى عن قول موسى عليه السلام لقومه: بأن الله تعالى غني عنهم وعن طاعتهم ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فعطفاً على ما سبق من قول موسى عليه السلام، فإنه كذلك قال لهم ﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فإن تحقق منكم الكفر، وكذلك تحقق الكفر ممن في الأرض جميعاً، مؤكداً ذلك بكلمة ﴿ جَمِيعًا ﴾ لتأكيد حال الكفر من جميع من في الأرض ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فإن الله تعالى غني عن إيمانكم وإيمان عباده جميعاً، وعن شكركم وشكر عباده، فليس لله عَزَّ وجل حاجة في خلقه، وليس في إيمانكم وشكركم زيادة له سبحانه وتعالى في شيء، لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى غيره، بينما غيره فقير إليه في كل شيء. فإن الله تعالى ﴿ لَغَنِيٌّ ﴾ لا يحتاج أحداً من عباده، فهو متفرد بالغنى عن خلقه، وكل شيء مخلوق له وحده لا شريك له. وأن من غِنَاه عَزَّ وجل أنه لا حاجة له في

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٦/٣)

إيمان أحدٍ من عباده، ولا شكره، وهو كذلك سبحانه وتعالى ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أي: محمود في ذاته، وفي اسمائه وصفاته وتدبيره، مستوجب للحمد، لكثرة إنعامه على خلقه.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

ينتقل الخطاب إلى المشركين، وتذكيرهم بما وصلهم من أنباء الأمم السابقة التي كفرت، فأهلكهم الله تعالى، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة[١] ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فبعد أن أجمل الله تبارك وتعالى لعباده الغاية من إرسال المرسلين، وأنه ما جاء من رسول إلا بلسان قومه انتقل البيان إلى التفصيل، فهو تفصيل بعد إجمال، بما يفيد التدرج بالأفهام والتعليم من العام والكل إلى التفصيل، وهو أدعى إلى الفهم في مثل هذا المقام. مما يدل على دقة توجيه القرآن الكريم في الخطاب، وفي الوعظ، وضرب الأمثال. وقد بدأ التوجيه الكريم من الله تعالى بأسلوب السؤال ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وهو سؤال استفهام يحمل دلالة الاستنكار عليهم في عدم

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤٣)

اتعاظهم بما بلغهم من أخبار تلك الأقوام، فيقرر عليهم أنه قد حصل لكم العلم بأنباء وأخبار الأمم السابقة لكم، فكيف لا تتعظون من إهلاكهم بعد تكذيبهم للمرسلين إليهم من الله تعالى، ثم ذكر ثلاثة منهم في هذا المقام ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ وهذا على سبيل الأمثلة من حيث الأسماء، وإلا هم كثير جداً لا يحصيهم إلا الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فمن بعد قوم نوح وعاد وثمود أمم وأقوام كثير، فمن كثرتهم أنه لا يمكن لكم ولا لغيركم أن يحصي عددهم، بل العلم بكامل عددهم محصور في علم الله تعالى ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهناك من انقطعت أخبارهم، واندثرت آثارهم، فهذه الأمم التي علمتم بأخبارهم، والأمم التي لا تعلمون عنهم شيئاً ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرسل الله تعالى لهم المرسلين، فجاء لكل أمة رسولها بالبينات التي تحمل الحجج والبراهين الواضحات القاطعات التي لا لبس فيها.

ثم يخبر الله تعالى برد تلك الأقوام على رُسلِهم بثلاثة أوصاف: الأول: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى: معناه أنهم كذبوهم، وردوا عليهم قولهم بأفواههم[1] أي: بألسنتهم التي في أفواههم، وهي تعطي دلالة القطع منهم، بعدم التجاوب، والتحدث مع المرسلين، فبلغ منهم الامتناع أن وضعوا أيديهم على أفواههم تمنعاً وتكذيباً واستغراباً وتهكماً، معلنين كفرهم وإنكارهم للمرسلين، وجملة ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ كناية عن المبالغة في الامتناع، والصدود، وهو أبلغ في الدلالة على موقفهم، والأفصح في تصوير حالهم.

والرد الثاني: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: الجهر والإعلان بالامتناع والإنكار بما جاء به المرسلون. بل عقدوا الإنكار على آيات الله تعالى البينة الواضحة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ فأوقعوا كفرهم على البينات، فكذبوا بالحجج والبراهين، مما يفيد أنهم جزموا بكفرهم القاطع للآيات، وبالتالي لا تصديق لهم بالمرسلين ولا بمضمون الشريعة التي جاء بها المرسلون. ومن لطائف ودقائق التأمل: قول ابن الجوزي رحمه الله تعالى عن ردهم للأنبياء ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ قال: أي على زعمكم أنكم أُرسلتم، لا أنهم أقروا بإرسالهم[2] وهو على سبيل الاستهزاء والسخرية.

---

(١) المرجع السابق (٥٤٣/٢)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢٥٧/٤)

وأما الرد الثالث: أنهم وصفوا ما جاء به المرسلون بأنه في موقع الريبة والشك ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ﴾ أي: في شك مما تدعوننا إليه، مؤكدين ذلك الشك بأنه مريب ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: مقلق ومخيف، لا نطمئن إليه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والريب قلق النفس، وعدم سكونها، وأضاف رحمه الله تعالى عن علاقة كفرهم بالشك: إنا كافرون برسالتكم، وإن نزلنا عن هذا المقام، فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك فلا مطمع في الاعتراف بنبوتكم[١] مما يدل على كمال الإصرار في الإنكار والتكذيب.

فردت رُسُل الله تعالى عليهم بما قاله عَزَّ وجل ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أتشكون في وحدانية الله تعالى وربوبيته؟ بريبكم وشككم في آياته، مع أنها في غاية الوضوح. فهو سؤال استنكار، يفيد التعجب من ردهم ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ إنه سؤال استنكار وتعجب، يقرر به المرسلون عليهم السلام أن ليس في الله جَلَّ جلاله شك ولا ريبة ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ سؤال استغراب على شهادة خلقه على إبداعه فيما خلق بأنه الله تعالى الخالق المصور، المدبر، بدلالة أن الْمُخَاطَب لم يتحكم أصلاً في وجود ذاته، وصورته وهيئته، فضلاً عن أن يحكم ويقرر بما سيكون عليه في حياته، فَيُقدِّر تحصيله وكسبه في حياته، وموته ونهايته.

ومن دقة خطاب المرسلين، ودقة البيان من رب العالمين، أن المرسلين خاطبوا أقوامهم بما يناسب تكذيبهم بالبينات، فقد أوقع المكذبون الكفر والشك على بينات وحجج الله تعالى حيث قالوا ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٍ﴾ فجاء الرد من المرسلين بما يناسب موقع تكذيبهم فيما أُرسلوا به من الحجج والبراهين التي هي البينات ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أتشكون في الله تعالى الذي أرسل البينات؟ أتشكون في قدرته وربوبيته بشككم في آياته؟ وكذلك يشمل ما أوقعوه من الشك في مضمون ما تدعوهم الرسل إليه، وهو توحيد الله تعالى وعبادته وفق ما شرع لهم. وجاء رد المرسلين بسؤال استفهام ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ يحمل هذا السؤال الاستنكار عليهم في أمر واضح، قد أكدته البينات، فكان يجب فيه الإيمان وعدم الاستنكار، فلا شك في الله تعالى، ولا فيما أمر، فكيف تكفرون به وتشكون فيه.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٩٧/٣)

ثم أكدوا وحدانية وربوبية الله تعالى وما يجب عليهم تجاه ربهم ببيان عظمة ما خلق ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أتشكون فيمن خلق السماوات والأرض على وجه الاختراع والابتكار؟ بإيجادها من العدم، أتشكون فيمن خلق هذه المخلوقات العظيمة؟ ومع هذا فإنه من رحمته بكم سبحانه وتعالى، أنه أراد لكم الخير الذي قابلتموه بالكفر والشك ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ فيدعوكم ربكم بما أرسل به الرسل والكتب لتحقيق الإيمان والتوحيد وعبادته سبحانه وتعالى بما شرع، من أجل أن يمحو عنكم ما اكتسبتم من الذنوب، فأي كفر؟ وأي عقول هذه؟ أن يقابل العبد بالتكذيب والشك والريبة لمراد الله تعالى له بالخير، فيرده ويطعن في آيات الله تعالى وفي رُسُلِهِ، فيذهب صوب العناد والشر. مما يدل على لطف الأنبياء وحكمتهم في التعامل مع المكذبين، فيتعاملون معهم بالتي هي أحسن، من خلال الترغيب والإيضاح والبيان، والترهيب بإنذارهم من مغبة كفرهم.

وكلمة ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ عائدة إلى الله تعالى، بما يفيد النداء، وأهمية ما يدعوكم ويرشدكم إليه، لأن العظيم الجليل إنما يدعو لأمر خيره عظيم، وينهى عن أمر شره وبيل. فيدعوكم أن تطيعوه ليغفر لكم ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها بما تستحقون. وفي هذا غاية الرحمة منه سبحانه وتعالى، إذ يدعوهم بنفسه، إذ نسب الدعوة مباشرة له جَلَّ في علاه، فهو يدعوكم مباشرة منه جَلَّ جلاله، بأن أرسل المرسلين بلسانكم ليعلموكم ويصححوا عقائدكم، فهو يدعوكم من خلال المرسلين، وما أنزل معهم من الحجج والبراهين والتشريع ليتحقق لكم الفوز والنجاة.

بل ومن كرمه جَلَّ جلاله أنه لا يعجل عليكم العقوبة، فيفنيكم ويُنْهيكم، بل يمدكم بالأجل، لحلمه ورحمته ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فلا يعاجلكم بالعذاب، الذي يقضي عليكم، بل يترك لكم الفرصة من الزمن، وذلك بالمد في آجالكم لتحقيق الطاعة له تبارك وتعالى، إنها رحمة الله تعالى. وهنا انتقل طعن الطاعنين وتكذيب الكافرين من آيات الله تعالى إلى الطعن في المرسلين ﴿ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فأنتم من جنس البشر، ليس لكم خصائص تختلف عنا، بما يفيد كيف تُسْتَثْنَون منا، وتكونون رسلاً، بما يفيد أنهم يريدون رُسلاً من غير جنس البشر. ثم احتجوا بأمر آخر ﴿ تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ﴾ فقرر الكافرون أن ما كان عليه آباؤهم هو الخير، وأن هؤلاء المرسلين يريدون الانحراف بهم عما ألفوه وتوارثوه عن آبائهم من الشرك والمعاصي. فأدى ذلك التوارث إلى أن زعموا وحكموا على بطلان ما جاء به المرسلون من الحق، مما يبين أثر الجهل، وأثر المسلك السابق على أصحابه، حتى وصفوا حرص المرسلين بإيقاع الصد لهم، الذي يصرفهم عن ما ألفوه وورثوه من آبائهم.

وفي دلالة كلمة ﴿ تَصُدُّونَا ﴾ ما يفيد قوة إرادة المرسلين وحرصهم على هداية أقوامهم، ونقلهم من الشرك إلى التوحيد، بل وأفاد ذلك دقة المراد، الذي هو الحرص من الأنبياء على مصالح أقوامهم، لأن الصد يفيد إرادة الصرف والاتجاه بهم من حال إلى حال، مما يبين قوة الجهد المبذول من المرسلين لأقوامهم، بإقامة الحجج والبراهين والأدلة عليهم، من أجل أن يتركوا ويُقلعوا عما هم عليه من الكفر، ويدخلون في الإسلام.

ثم يطلب هؤلاء المكذبين من رُسِل الله تعالى دليلاً ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ فإن كنتم صادقين فأثبتوا لنا أنكم مُرسَلُون بحجة ظاهرة بينة، تدل على صحة ما تدعون إليه ﴿ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ والسلطان المبين: الحجة التي لا لبس فيها، ولا احتمال لغير ما دلت عليه. ويمثل هذا الطلب من الكافرين نوعاً من الاستنكاف والعناد، لأن الله تعالى إنما يبعث بالآيات البينات التي تثبت رسالة المرسلين، فيريدون حججاً وبراهيناً غير التي جاء بها المرسلون.

فلما استنكر هؤلاء الأقوام الكافرة بشرية المرسلين، فقالوا ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ أخبر الله تعالى بما رد به المرسلون على الكافرين ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فقد أجابت رُسُلُهُم بتقرير بشريتهم، ومماثلتهم لهم في الجنس ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ فقرروا لهم أنهم مثلهم في البشرية، ولم يترفعوا عليهم، ثم نقلوهم بتدرج عظيم إلى حقيقة التفاوت، لإقامة حجة الإثبات عليهم، فكان الرد الأول: إثبات المماثلة في الجنس ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ والرد الثاني: امتنان الله تعالى على من يشاء، بما يشاء ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فبدأوا بالاستدراك ﴿ وَلَٰكِنَّ ﴾ للفت الانتباه وشده نحو التفاضل البشري، بما يُجريه الله تعالى على عباده بالتوفيق والتفضيل، فإن التوافق بيننا في جنس البشرية لا يعني الاستواء، لأن التوافق البشري لا يمنع أمراً متعلقاً بالله تعالى، فهو يمتن على من يشاء من عباده بما يشاء، فإن الاختلاف هو في امتنانه عَزَّ وجل واصطفائه للرسالة من عباده، فإنه راجع لله عَزَّ وجل، وليس للمُرْسَل إليهم ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فإن الله تعالى يتفضل بالاختصاص بالرسالة على من يشاء من عباده، فيمتن بالنبوة وما تحمله من رسالة للأقوام.

والأمر الثالث: نفيهم عن أنفسهم القدرة على الإتيان بالحجج والبراهين ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فنفوا عن أنفسهم القدرة على الإتيان بالحجة والبرهان والرسالة من عند أنفسهم ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ ﴾ بل إنها حصر على الله تعالى ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

وبالتالي ليس لكم الحق في أن تختاروا نوع الرُّسُل، ولا نوع الحجة، ولا زمانها ولا مكانها، فإن الاختيار لله وحده لا شريك له، وليس لنا نحن المرسلين، ولا لكم ذلك الاختيار ﴿ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فالسلطان الذي هو الحجة محصور فقط فيما يختاره الله تعالى. ثم يقررون قاعدة عظيمة لهم ولمن آمن معهم، لتكون النهج القويم لهم وللمؤمنين ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فعلى الله تعالى يجب أن يتوكل المؤمنون. فالمؤمنون يعتمدون على الله تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، ليقينهم التام أنه لا يحقق لهم المصالح إلا الله سبحانه وتعالى، ويطلبون منه عَزَّ وجل دفع وصرف ما يضرهم، لعلمهم أنه لا يدفع عنهم الضر ويزيله إلا هو سبحانه وتعالى، وذلك لعلمهم بكمال قدرته، وضعف قدرتهم، وكمال علمه عَزَّ وجل، ونقص معرفتهم. وهي قاعدة عظيمة للمؤمنين أينما كانوا، وكيف كانوا من حال، وفيما يريدون من خير، وما يدفعونه من شر. وجملة ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ تفيد الوجوب الذي يجب أن يتحقق من المؤمنين تحصيل التوكل على الله تعالى في جميع شؤنهم. ومن دقة تشريع النص الكريم أن ورد التوكل عاماً، ليستوعب وجوب تحققه في كل أمور المؤمن، بلا استثناء، فلا يقتصر على ما يرى أنه عاجز عنه، بل فيما يرى أنه من مقدوره، وما يرى أنه صعب عليه تحققه، فليس السهل والمقدور متحقق إلا بقدرة الله تعالى ومشيئته، وليس شيء استصعب تحصيله بعزيز على الله تعالى أن يحققه.

ثم يقرر رُسُل الله تعالى قاعدة عظيمة في وجوب التمسك بالتوكل التي قررها الله تعالى وشرعها لعباده، من خلال سؤال استنكاري، يستثيرهم ويستثير غيرهم من المؤمنين، فيما رأوا من أثر ذلك التوكل على الله تعالى ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ما الذي يمنعنا عن التوكل على الله تعالى؟ فهو سؤال يفيد التعجب من أن يمتنعوا عن تحقيق ذلك، بما يفيد تقرير قاعدة التوكل، ومستدلين بذلك على هدايته وتوفيقه عَزَّ وجل لهم ﴿ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ فقد بين وأوضح لنا طُرُق الرشاد، وعَرَّفَنَا طريق التوكل. فينفون بذلك جميع الموانع التي يمكن أن تمنعهم من التوكل على الله تعالى، وقد شاهدوا وعايشوا كيف هداهم الله تعالى في جميع سُبُلِهم، وليس في شأن واحد، بل اثبتوا توفيق الله تعالى في جميع شؤونهم، لأن كلمة ﴿ سُبُلَنَا ﴾ قد جمعت جميع السبل، وهي الطرق والاتجاهات في جميع جوانب الحياة، من جلب خير ودفع ضر وشر. وفي هذا موعظة لأقوامهم، وبيان لهم عما هم فيه من الخير، ودفع الشر، حتى عايشوا نعمة التوكل وأثرها في جميع سُبُل حياتهم.

ثم انتقل المرسلون إلى بيان حالهم مع من كذبهم من أقوامهم ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ﴾ فسوف نصبر على أذاكم لنا، مما يثب أن أقوامهم قد ألحقوا بهم الأذى العظيم الذي تطلب الصبر منهم عليهم، فلم

يكتفوا بكفرهم، بل تمادوا في إيذاء المرسلين ومن آمن معهم، بل ومن دقة البيان أن أوردوا الصبر بصيغة المستقبل ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ ﴾ أي: أن صَبرَنَا عليكم سيستمر، بما يفيد الثبات على الأمر، ودعوتكم، وتحمل ما كان وما يكون وما سيكون منكم من أذى، بل ومن جميل البيان وجمال دلالة المنطق: الربط في الآية الكريمة بين المستقبل في الصبر ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ ﴾ وبين ماضي الإيذاء ﴿ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾ فالأذى جاء فيما كان منهم، فقد تحقق الأذى منكم سابقاً وحاضراً، ومع هذا نستقبلكم بالصبر على ما كان منكم، وما سيكون منكم من الأذى ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَا ﴾ فهي جملة في غاية الجمال وروعة الدلالة، وإعجاز وبلاغة البيان. إذ حوت بلاغة اللفظ، وكمال المعنى والمراد، مع جمال السياق ودقة دلالة الألفاظ، في براعة من الإيجاز. مما يفيد أن من أقوى ما تواجه به العدو هو الصبر في مجال الدعوة، وغيرها من مجالات الحياة، فإن في الصبر معية الله تعالى، لأنه مع الصابرين، ويحب الصابرين. وهي موعظة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه، ولمن بعدهم إلى قيام الساعة، ببيان ما حصل لمن قبلهم من المرسلين والمؤمنين، وكيف صبروا على ذلك. ليحصل بذلك العلم والاتعاظ والمنهج الذي يلزم الأخذ به.

ثم تكرر بيان أهمية التوكل على الله تعالى، بصيغة التوجيه والحث عليه، ليفيد التوكيد والتأكيد، وبيان أهميته، والحرص عليه ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أي: يجب أن يستمر من اتصف بصفة المتوكلين في توكله على الله تعالى. فإن المتمثلين بالتوكل على الله تعالى يلزمهم المداومة والاستمرار على توكلهم، بما يفيد أن المتوكل قد رأى بعينه، وبجميع حواسه فضل الله تعالى عليه، وأثره فيما توكل عليه فيه، فعايش نعمة وأثر التوكل، فيجب عليه بأن لا يترك التوكل وقد عاين ثمرته وعايش ذلك. فإن هذا التوجيه هو ثمرة ونتيجة لما سبق. وفي ذلك حث على التوكل على الله تعالى لمن لم يتوكل عليه، لأنهم أبانوا لغيرهم ثمرة التوكل على الله تعالى، فهي موعظة مؤثرة، وعظيمة البيان.

وفي جملة ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ ﴾ أفادت الحصر، بأن يكون التوكل على الله تعالى وحده لا شريك له. ومن لطائف البيان أنه ورد التوكل مرتين: الأول متعلق بالمؤمنين ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ والثاني متعلق بالمتوكلين الذين طبقوا وعملوا بالتوكل ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ففي الأول: ما يفيد حث للمؤمنين على التوكل على الله تعالى، وأن التوكل من لوازم الإيمان، كما ورد الحث بصيغة الأمر ﴿ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ والثاني: حث للمتوكلين الذين لزموا التوكل أن يُثابروا عليه، وفيه تشجيع ومدح وثناء لهم بتسميتهم بالمتوكلين. وورد كذلك بصيغة الأمر ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ليفيد الوجوب، ووجوب الاستمرار. ويأتي بمعنى: أن على من أراد ثمرة التوكل أن يحققه بالعمل به.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى
وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ
صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ
ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ
ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

ويخبر الله تعالى عن رد الكافرين لأنبيائهم بعدما رأوا منهم الاصرار والمداومة على نشر دعوتهم إلى الحق، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد عَمِدَ الكافرون إلى التهديد، وطرح الخيارات التي يريدونها، فالخيار الأول ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ وهو الطرد والإبعاد للمرسلين ولمن آمن معهم، حيث جاء لفظ الإخراج بصيغة الجمع والقسم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم ﴾ فالجمع بأنهم قصدوا جميع من آمن، والقسم، بلام القسم التي تصدرت كلمة ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم ﴾ والذي يدل على قوة الإصرار، بل اعتبروا أن الأرض التي يعشون فيه جميعاً ملكاً لهم، وأصبحت خاصة بهم دون غيرهم من المؤمنين ﴿ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ ﴾ فنسبوا الأرض لأنفسهم، عازمين على منع الرسول ومن آمن معه من حق العيش فيها معهم، مخالفين نهج الله تعالى الذي قرر أن يرث الأرضَ عبادهُ الصالحون، فأرادوا أن يجعلوها لمن كفر بالله تعالى، فظهر منهم كمال الإصرار على الكفر، ومعادات الرسول ومن آمن معه. وأما الخيار الثاني فهو ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ أي: تكونون على ما نحن عليه من الكفر والشرك، وما ألفوه عن آبائهم، وكلمة ﴿ لَتَعُودُنَّ ﴾ تفيد أسلوب الخيار من خلال الأمر بالعودة إلى الكفر، على أنه لا محيد لهم عن هذين الخيارين، فمطلبهم هو رجوع من آمن إلى ما كانوا عليه من الكفر بعد مفارقتهم له، وأما الرُّسُل فلم يكونوا على الكفر قبل نبوتهم، لكنه تغليب في الخطاب لقومهم المتبعون لأنبيائهم من حيث الوصف، فأدخلوهم ضمن عموم من تركوا الكفر ودخلوا في الإيمان، وذلك على وجه تغليب صفة من اتبعوا أنبيائهم في الخطاب قبل الإيمان.

وفي شدة هذا الموقف ينزل الوحي من الله تعالى على الرُّسل ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأوحى سبحانه وتعالى للمرسلين بإثبات معيته لهم، ونصرهم المؤزر على الكافرين، فإن معية الله تعالى تباشر المرسلين ومن معهم، لِتُثَبِّتَ قلوبهم، وتُقوي إرادتهم، وتشد من عزيمتهم وثباتهم في مواجهة عدوهم ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ليتحقق في الظالمين الهلاك من الله تعالى، ونسب الله عَزَّ وجل فعل الهلاك له تبارك وتعالى ﴿ لَنُهْلِكَنَّ ﴾ فإنه سيتولى هلاكهم بما يشاء عَزَّ وجل، بل وسماهم بما يستحقون ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إذ ظلموا أنفسهم بعدم الأخذ بالحق والنجاة، وظلموا المرسلين والمؤمنين، بمحاربتهم وطردهم، والتشنيع عليهم، وإرعابهم وتهديدهم بالإخراج أو الكفر بالله تعالى.

ثم انتقل البيان العزيز إلى الإخبار بما سيكون عليه الرُّسُل ومن آمن معهم ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ فإن الله تعالى يعدكم، ووعده حق ثابت لا مراء فيه، بأنه بعد إهلاك الكافرين، ستصبحون سكان الأرض التي يريدون إخراجكم منها، وتصبحون أسيادها، مما يفيد أنكم آمنين مما سيصيبهم من العذاب، فسوف ينجيكم الله تعالى منه بقدرته، وهذه بشارة ثانية بإسكانهم الأرض، بعد البشارة الأولى بإهلاك الظالمين. لتكون عبرة وعظة لمن بعدهم، ومنهم كفار مكة، وغيرهم من الكافرين، وتثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ولتكون آية باقية ما بقي الزمان، وبشارة لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بأن منهج الله تعالى مع من سبق من المرسلين هو نجاتهم وإهلاك الكافرين، وإسكان المؤمنين أرض الكافرين.

ثم يبين الله تعالى أن هذه قاعدة ربانية ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فإن ذلك الهلاك للكافرين والإسكان للمؤمنين الأرض، هو عطاء ونصرة ونجاة لمن تحقق فيهم خوف مقام الله تبارك وتعالى، وخوف الوعيد منه عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ فالخوف الأول: ﴿ خَافَ مَقَامِى ﴾ وهو خوف المؤمنين المباشر من عظمة وقدرة الله تعالى، وذلك لمقامه عَزَّ وجل، وعظمته ومكانته، وقهره وسلطانه، ومنزلته وعزته وجبروته، فكلمة ﴿ مَقَامِى ﴾ تجمع كل صفة لله تعالى تستوجب الخوف منه عَزَّ وجل، وتبجيله وتعظيمه. والخوف الثاني: ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ وهو الخوف من زواجره ومما وعد ويعد به من الهلاك والعذاب، فاستوجبت في نفوسهم الطاعة والانقياد والانكسار لله رب العالمين.

ومن دقة البيان تكرا الخوف مرتين ﴿ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ عند ذكر مقام الله تعالى، وعند وعيده، لأنه الأمر الذي يَحْدُثُ ويَنْشَأُ في القلب من مقام الله تعالى وعزته وقوته، فينبثق له القلب خوفاً ووجلاً، وكذلك الخوف الذي ينفرد عن الأول عند الوعيد منه سبحانه وتعالى لمن عصاه. مما يفيد أن المؤمن يخاف مقام ربه دائماً وأبداً، ويخاف من وعيده عند وجود مقتضى الخوف من وعيده، وذلك عند التقصير أو عند التجاوز والتهاون، فإنها دقة في البيان، ودقة في الأسلوب، ودقة في المعالجة.

وفي هذا تعليم وتشجيع للمؤمنين لتحقيق الخوف الموجب للطاعة والامتثال لله تعالى، وفيه ترغيب في تحصيل الخوف الذي عاقبته النصر والتمكين. وفيه كذلك بيان معية الله تعالى للمؤمنين ونصرهم، وترهيب ووعيد لمن تمادى على مقام الله تعالى، ولم يخف من وعيده تبارك وتعالى. اللهم اجعلنا ممن خاف مقامك وخاف وعيدك يا رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من المرسلين والمؤمنين الذين آمنوا معهم، بأنهم استنصروا بالله تعالى على أعدائهم، وسألوه عَزَّ وجل أن يقضي ويفتح بينهم وبين أعدائهم الظالمين بحكمه عَزَّ في علاه ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ فاستنصروا بالله تعالى، وهو معنى الاستفتاح ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ ﴾ مما يبين أن من حقق الخوف من مقام الله تعالى، والخوف من وعيده، فالتزم طاعته، فإن الله تعالى ينصره حين يستنصر به، وَيُخَيِّب أمر الجبابرة ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ فخاب وخسر كل جبار، وهو المتكبر، الذي يرى ما له من حقوق، ولا يرى حقاً لغيره عليه. وأما العنيد فهو: المصر على الباطل بالرغم من معرفته للحق والحقيقة، فهو يعدل عن الحق وينحرف عنه، فقد خاب وخسر أصحاب هذه الصفات، مما يفيد الحذر من صفات التجبر ومعاندة الحق بالباطل. وأهمية التواضع للحق، والأخذ به، وأهمية العدل من النفس في حقوق الغير، وفي حقها للنجاة من العذاب.

ثم يخبر الله تعالى بالمزيد من العذاب الذي ينتظر من تجبر على رُسِلِهِ ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ فإن جهنم أمامه في آخرته، ويُسقى من صديد أهلها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: مِن أمام كل جبار ﴿ جَهَنَّمُ ﴾ يَرِيدُونَهَا، ووراء في هذا الموضع، بمعنى أمام، كما يُقال: إن الموت من ورائك، أي: قُدَّامك[1] ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ وأن ما يستقي منه ويشربه فهو ماء، ولكنه ﴿ مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾ والصديد هو القيح والدم، وقيل هو غسالة أهل النار، وقال الضحاك رحمه الله تعالى: هو ما

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦١٧/١٣)

يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم[١] مما يدل على رائحته الكريهة، وطعمه المنتن، ولا بد من شربه ليروي عطشه، وما هو مرتوي منه، ولذلك وصف الله تعالى حال شُربِه منه بأنه يتجرعه ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ والتجرع هو: أن يحتسي الماء أو المشروب مرة بعد مرة لكراهته لما يشرب، والتجرع يفيد المغالبة، أي: مغالبة النفس والطبع على ما لا يستطيع ابتلاعه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ فهو لا يستطيع ابتلاعه، وساغ الشراب في الحلق سهل انحداره[٢] فهو لا يقدر على أن يجعله ينحدر، لكراهته له: طعماً ورائحة، فهي معاناة عميقة بين مطلوب لا بد منه، ومكروه لا بد من تجرعه. فهو في عذاب مقيم حتى من معالجته لعطشه، فهو بين كراهته للماء الذي أمامه، وعطشه الذي يعانيه، فإن شرب لم يستسيغه، وإن تركه ناله عذاب العطش.

ومن شدة ما هو فيه من المعاناة يشعر أن أسباب الموت قد أحاطت به ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ ﴾ فأسباب الموت تحيط به من كل جهة، ومن كل موضع منه ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ ﴾ وحقيقة حاله أنه ليس بميت موتاً تنقطع معه الحياة، وإنما هي مشاعر الموت التي تحيط به من كل ناحية من جسده، فهو يعيش سكرات الموت وما هو بميت. فهو تصوير عميق لحقيقة ما سيواجه كل كفار عنيد، ومن بعد هذا العذاب عذاب آخر هو أشد من سابقه ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴾ فإنه ينتظره عذاب آخر بعد عذاب الصديد الذي هو فيه، فينتظره عذاب أشد وأقوى نكالاً من سابقه، فصفته أنه عذاب غليظ في شدته وقوته. فنسأل الله تعالى السلامة والعافية في الدنيا والآخرة، وأن يحسن خاتمتنا جميعاً. وفي هذا تنبيه وموعظة لكل كافر بما ينتظره من العذاب، ليكون على بينة من أمره. وإرشاد ونصح له حتى يجتنب عذاب الله تعالى بتحقيق الإيمان والدخول في دين الله عَزَّ وجل الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يخبر الله تعالى عن مصير أعمال الكافرين، فيبينها عَزَّ وجل في أكمل بيان، وبأوضح مثال ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ فأعمال الكافرين التي كانوا يزعمون أنها لوجه الله تعالى في الدنيا، فإن مثلها في الآخرة، كمثل رماد هاجت عليه ريح في يوم عاصف، فنسفته وتطايرت به، فأذهبته، حتى لم يعد له أثر. فكذلك أعمال الكافرين يوم القيامة، فإنها متطايرة، لا بقاء، ولا أثر لها، إذ لا يجدون منها شيئاً ينفعهم

---

(١) المرجع السابق (١٣/٦١٨-٦١٩)

(٢) الاصفهاني، مفردات غريب القرآن، ص (٢٤٩)

عند الله تعالى، فينجيهم به من عذابه، لأنهم لم يكونوا يعملونها لله خالصاً، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام، فأساسها الكفر، وما بُني على الكفر فهو باطل، لا خير ولا ثمرة منه.

وقد شبه الله تعالى أعمالهم بالرماد ﴿كَرَمَادٍ﴾ وهو الذي يبقى عن الحطب بعد اشتعاله وفناء ناره، والرماد أثر متطاير، لا قيمة له، ومهما كثر فإنه خفيف لا وزن ولا ثِقل له، فسرعان ما يتطاير ويتلاشى، ولا يمكث ولا يبقى. فقد يكون كثيراً ولكنه لا وزن، ولا ثِقَل له من خفته، وبالتالي لا قيمة له عند الله تعالى، ولا ثمن، وسرعان ما تطير به الريح، فيتبعثر، ويتلاشى، ولا يتماسك، ولن يجتمع مرة أخرى أبداً. فكذلك أعمال الكافرين لا قيمة ولا وزن ولا أثر لها، فإن مثلها كمثل الرماد، ولا بقاء ولا ثبات لها، وأما قيمتها فهي متطايرة لا وزن لها، مما يبين أن أساس الأعمال المقبولة هو تحقيق الإيمان والامتثال بالطاعة، وهو الإسلام، والإخلاص لله تعالى، بأن يكون العمل الصالح وفق ما شرع الله تعالى، وخالصاً له وحده لا شريك له فيه. مما يبين أهمية الإخلاص لله عَزَّ وجل، وأهمية المتابعة لشريعة الله تعالى، كما تمثل بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد جعل الله تعالى ذلك اليوم في صورة يوم عاصف من الريح ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي شديد العصف، وكذلك يوم القيامة شديد الحساب، لا يبقى فيه من الأعمال إلا ما كان خالصاً لله تعالى، وموافقاً لشرعه الحكيم. وكذلك تمتنع إرادتهم عن تحصيل شيء من النفع عن تلك الأعمال. فقال جَلَّ جلاله ﴿لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ فلا قدرة لهم في تحصيل شيء من النفع عن تلك الأعمال. فنسب الله تعالى الكسب لهم، والتحصيل لهم، لأنه فعلهم، ولتؤكد وتمثل هذه النسبية الحسرة النفسية، وما يتولد عنها من القهر، لأنهم لم يَتَّبِعُوا دين الله تعالى، ويطيعوا المرسلين، ويعملوا وفق شريعة الله تعالى.

ثم وصف الله تعالى ذلك العمل الذي عملوه بأنه متوغل في الضلال، حتى أصبح موغلاً في ضلال الخسارة، فتباعد عن الحق تماماً ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فذلك العمل بعيد عن الإنجاء، فإن أعمالهم التي عملوها لم تكن على منهج الله تعالى، فكانت ضلالاً موغلاً في الضلال، فلم يكن ضلالاً فقط بل موغلاً فيه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فأبعدهم الله تعالى بذلك الضلال عن النجاة. مما يفيد أن الله تعالى طيب، ولا يقبل إلا العمل الطيب الذي على منهجه سبحانه وتعالى. وأن أعمال البر التي يعملها الكافرون لا تنفعهم في الآخرة، لأنها على غير منهج ومراد الله تعالى، ليؤكد بذلك أنه ما بُني على باطل فهو باطل، وما بُني على الكفر فهو باطل، لا فائدة تُرجى منه للكافرين ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ فمسافة ومساحة ضلالهم بعيدة جداً عن الحق، والطريق المستقيم، بل وموغلة في الضلال الذي أوغلوا فيه حتى تباعد بهم عن الحق. فإنها صورة للحسرة والندامة يوم لا تنفع الحسرات، ولا ينفع الندم.

فإن ضرب المثل في القرآن الكريم يعطي الصورة المماثلة للحقيقة، مما يبين أهمية ضرب الأمثال في المواعظ والتعليم والإرشاد، فإنها مما يقرب المعنى والحال والصورة إلى الذهن، وليس هناك أبدع من أمثال كتاب الله تعالى، في ألفاظه ومعانيه، وبلاغته، وأثر دلالاته، وقوة مخاطبته للعقل، وإثارة الحس والنفس نحو دلالاته ومعانيه. اللهم انفعنا بكتابك وسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

يوجه وينبه الله تبارك وتعالى عباده إلى عظيم خلقه الدال على عظمة قدرته، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ليحققوا مخافة مقامه ووعيده، وتعظيمه في نفوسهم، وطاعته واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال جَلَّ جلاله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ لقد أورد الله تعالى هذا التوجيه الكريم، تبياناً وإيضاحاً أن الذي خلق السماوات والأرض، ورفع السماء بغير عمد، وبسط الأرض للأنام، أنه قادر على استئصالكم، والإتيان بخلق جديد غيركم.

فبدأ التوجيه الكريم بسؤال تقريري لما يشاهده المخاطبون من عباده ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لشد الذهن والانتباه والحس إلى المرئي الذي سيذكره الله سبحانه تعالى، لبيان عظمته التي لا يمكن أن يتغافل عنها الرائي، أو يتعذر من رؤيتها. وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يشاهده بعينه وبصيرته. وورد الخطاب الاستفهامي ﴿أَلَمْ تَرَ﴾

دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها الْمُخَاطَب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية إلى أن يُفنِى الله تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة، ففي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس، يخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وكذلك في صيغة البيان، وقوة أثره.

وفي جملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ شد الانتباه إلى ما هو متقرر في فطرة العباد الصحيحة، أن الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ألم تر وتشاهد بعينك، وتتأمل وتتفكر أيها الإنسان بعقلك وببصيرتك حتى حصل عندك بما رأيت من الآيات ما تقرر به العلم بأن الله تعالى هو خالق السماوات الشاهقة الارتفاع بغير عمد، وما فيها من الأجرام والكواكب والشمس والقمر، وحركتها، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وما ينزل منه من الماء على الأرض التي تمشي عليها، وما فيها من الجبال والأودية والزروع والثمار والأنهار والطيور والأنعام، فقد خلقها بالحق المضاد للعبث ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ فلم يخلقها عبثا، وإنما خلقها بالحكمة، ولأمر عظيم، فهو سؤال تقريري، يقرر فيه سبحانه وتعالى هذه الحقيقة، بأن خلق السماوات والأرض معلومة معروفة عند الإنسان، مما يدل على عظيم قدرته عَزَّ وجل، التي تبين لكم أنه لو شاء عَزَّ وجل لاستأصلكم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ فلو أراد سبحانه وتعالى الفناء لكم لأفناكم، وخلق قوماً آخرين غيركم.

مما يفيد أن استبدالكم بغيركم ليس بأمر عزيز على الله تعالى، وقد خلق السماوات والأرض وما فيهما، والتي هي أعظم من خلقكم. مما يقرر به التنبيه والتحذير، ووجوب التأمل وتحقيق الطاعة لله تعالى، فإن استئصال من أراد ليس على الله تعالى بعزيز، بل أهلك من أهلك ممن كان قبلكم. وفي هذا تعريض للكافرين من المشركين وغيرهم، فهم المقصودون بالتهديد، لأن المؤمنين مقرين بما أقره الله تعالى. وجاء الخطاب عاماً ليتقرر به أن هناك من آمن وصدق بهذه الحقائق، مقابل الكافرين بالحقيقة الثابتة ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ فليس ذلك الهلاك بمتعذر، ولا ممتنع على الله تعالى، فقدرته تَجَلَّت لكم في خلق السماوات والأرض. فواجبكم الطاعة والامتثال.

ثم ينتقل السياق الكريم مباشرة إلى حال الكافرين، يوم القيامة، يوم يبعثر ما في القبور، لتعريفهم بالمشهد الذي سيكونون عليه قبل أن يكون، مما يفيد قوة التحذير والتخويف ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ

ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ فبدأ النص الكريم بوصف خروجهم من قبورهم يوم البعث ﴿ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴾ أي: ظهروا واضحين كما كانوا عليه حين موتهم، فلم يتغير منهم شيء. فحين يُنفخ في الصور يخرجون من القبور على أرض مستوية لا عوج فيها ولا أمتا. فيظهرون لله تعالى، فلا يخفى عليه منهم أحد، فكل أحد بارز ظاهر، لا يستطيع أن يختفي أو يتخفى عن الله تعالى. وجاء وصف حالهم بصيغة الماضي ﴿ وَبَرَزُواْ ﴾ وكأنه شيء قد حصل، ليفيد ثبات التحقق، وأنه حاصل فيهم، وهذه صورة المشهد، كحقيقة حاصلة مثل ما قيلت لكم، فإنها قوة البيان، وقوة الإرادة، وقوة المشهد، وقوة سلطان وقدرة الله العظيم العزيز.

وفي هذا الموقف، وفي هذه الحالة، تحصل محاورة بين التابع والمتبوع، بين الضعفاء التابعين، وبين المتعاظمين المستكبرين من المتبوعين ﴿ فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا ﴾ فقال الأتباع للمتبوعين الذين كانوا يستكبرون ويتعاظمون، فيغتر بهم الضعفاء، فيقلدونهم، ويتابعونهم في شرهم وكفرهم، وفي التكذيب بالرسل، فيصدون بذلك عن الحق، فيقول المقلدون التابعون في اعتراف منهم لهم ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا ﴾ لقد كنا لكم في الدنيا أتباعاً، فنطيعكم، ونتبعكم فيما تقولون وتأمرون، وإزاء هذا الاتباع، هل لكم أن تتحملوا عنا شيئاً من العذاب، مكافأة لنا، لقاء مناصرتنا لكم في الباطل على الحق ﴿ فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ فكما اتبعناكم في الدنيا، فهل لكم أن تدفعوا عنا شيئاً من عذاب الله تعالى؟ فتتحملون عنا شيئاً منه؟

ومما تقرر في نفوسهم ذلك الوقت أن العذاب واقع بهم، ولكن لهوله طلبوا أن يتحملوا عنهم شيئاً من العذاب وليس كله، إذ لم يطلبوا دفع العذاب كله عنهم، بل ﴿ مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ تتحملون عنا شيئاً من العذاب، حتى يخف عليهم عذاب الله تعالى، فقد أيقنوا أن العذاب حاصل وواقع بهم، ولا مفر لهم منه. فقال الكبراء بما ذكره الله تعالى عنهم ﴿ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡ ﴾ لو وفقنا الله تعالى للهداية، لهديناكم إليها. فقد أرجعوا الهداية والتوفيق إلى الله تعالى، أي: لو ألزمنا وأرغمنا الله بالهداية لهديناكم معنا، بتقليدكم واتباعكم لنا. فلأنهم كفرو، وجحدوا الحق، وكذبوا المرسلين، عاقبهم الله تعالى بجنس صنيعهم، فلم يوفقهم للهداية، فليس معنى ذلك أن الله عَزَّ وجل منعهم من الهداية ابتداء، بل عاقبهم بجنس فعلهم، لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، ولو فعل عَزَّ وجل ذلك لكان حقاً له فيما خلق، فإن الملك له تبارك وتعالى، ولكن

الله عَزَّ وجل رؤوف رحيم بالعباد، فما أرسل الرُّسُل إلا رحمة للعالمين. وكل نفس بما كسبت رهينة. كما قال الله تعالى في سورة التكوير ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فالكافر هو الذي اختار كفره، وما أراد الاستقامة ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

ثم قالوا لأتباعهم بما يفيد: أنه لا فائدة اليوم للصبر ولا للجزع، فالعذاب متحقق فينا جميعاً ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ فقد استوى الآن الجزع والصبر، فلن يحقق لنا منجا، ولا مهرب من العذاب، بما يفيد أن العذاب واقع فلا محيص عنه، ولا مهرب منه، فليس لنا ما نحقق به التباعد عن العذاب. فإنها صورة لألم والحسرة، الذي يتشكل منه العذاب القلبي والنفسي والجسدي، والذي تمتلئ به نفوسهم من ألم الندامة لَمَّا قُضي الأمر الذي لا رجعة لهم فيه، حتى يتمكنوا من إصلاح حالهم. فإن في ذلك عبرة، ومشهداً، كأنك تعاينه من قوة كلام الله تعالى، وعظمة بيانه. اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك برحمتك يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين.

بعد انتهاء الحوار بين الضعفاء التابعون، والكبراء المتبوعين، يخبر الله تعالى عما سوف يخاطب الشيطان به أتباعه من التابعين والمتبوعين في ذلك الموقف ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ فبعد أن قضى الله تعالى بين عباده، فدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أنطق الله تعالى إبليس بحقيقته وشهادته فيما كان منه ومنهم، فقام فيهم الشيطان خطيباً مثيراً في عواطفهم الحسرة والندامة، ليزدادوا حزناً وكمداً على ما هم فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فإن الله تعالى وعدكم على ألسنة رُسله، وفي كتبه، بالوعد الحق، الذي هو لقائه عَزَّ وجل، ومحاسبتكم، ومجازاتكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فإن الله تبارك وتعالى قد أوضح وبين لكم شرعه، وسُبُل الرشاد، وكان وعده حقاً كما وعد وأخبر جَلَّ جلاله، فلا ريب فيه ولا شك.

ثم أوضح إبليس وبين لهم ما كان من وعده، ونتيجته ومحصلته ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وهذا اعتراف منه بأن وعده لهم كان كذباً، فهو يعد الكافرين بأنه لا بعث ولا حياة بعد الموت. وبالتالي لا حساب ولا جزاء، إنما هي حياتكم الدنيا، فافعلوا ما شئتم، فَوَعَدَهم بكل ما يُفسِد عليهم الإيمان بما وعد الله تعالى. وبالتالي أوقع باللائمة عليهم، فهم الذين اتبعوه بطواعيتهم، وتركوا الحق المبين الواضح، وهذا اعتراف وشهادة منه عليهم. مما يفيد وجوب الحذر من فتنة الشيطان ومغريات الدنيا وفتنتها.

ثم يوضح لهم قضيت الاختيار، بأنه لم تكن له عليهم ولاية حتى يُكرههم، بل هي متابعة منهم له، من غير ولاية ولا إرادة له عليهم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ فما كان لي سلطان التحكم والإكراه في إرادتكم، حتى أكرهتكم على الكفر والمعاصي، وليس لدي شيء من سلطان الحجة والبرهان فأتيت به لكم . ومن دقة البيان الكريم ورود دلالة نفي السلطان، التي تعني القوة، سواء في البرهان والدليل، أو التحكم في الإرادة، فالذي فعله هو فقط دعوتهم للكفر ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ فالذي كان مني لكم، هو أن دعوتكم، ولم يتجاوزها الأمر، فقد دعوتكم إلى اتباع الباطل، بالإغراء والتزيين لكم في موالاة واتباع المعاصي، وعدم التصديق بالأنبياء، وبما جاؤوكم به من البراهين والحجج والأدلة، فالاستجابة كانت منكم من غير سلطان مني عليكم ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ﴾ فأطعتموني باختياركم، مما يفيد ويعني أنهم سَلَّطُوا الشيطان على أنفسهم باتباعه وموالاته. فهذه حقيقة يكشفها الله تعالى عن حال أهل الكفر والضلال، وما هم فيه من الواقع والحقيقة مع الشيطان ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فلا تُوقِعُوا نتيجة اللوم من العذاب عليَّ، بل أوقعوها على أنفسكم، عليكم أنتم ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فعاتبوا ذواتكم، وألقوا باللائمة على أنفسكم بدلاً من أن تُلقوها عليَّ، فأنتم أجدر بها ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ فما أنا بمخلصكم مما أنتم فيه، ولا قدرة لي على نفعكم وإغاثتكم وإنقاذكم ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ وكذلك أنتم لستم بمنقذين ولا مقدمين نفعاً يخلصني من عذاب الله تعالى، بمعنى أننا جميعاً في العذاب سواء، وكذلك في العجز وامتناع القدرة، ثم يعلن لهم جحوده بأنه شريك لله تعالى ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ فإنني كفرت بإشراككم إياي في الدنيا مع الله تعالى في الطاعة ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإن المشركين والكافرين عموماً لهم عذاب مؤلم من كل وجه.

وفي هذا توضيح من الله تعالى، وتصوير لما سيكون عليه الموقف وكأنه حدث ووقع، وأن هذا هو مشهده أمامكم أيها الناس. فهو تحذير عام من الله تعالى من غواية الشيطان وتزيينه الباطل للناس، وأن واجب الإنسان إدراك ما نبه الله عَزَّ وجل له وعنه، وحذَّر منه، وأنه ليس للشيطان سلطان التصرف في إرادة الإنسان، وإنما يقتصر فعله ويقف عند تزيين الباطل، بالوسوسة، والتفكير المنحرف، والتزيين له في أجمل ما يكون، وفي نفس الوقت يصور الحق الواضح للعيان والأفهام والعقول في صورة الباطل، فيراوغ بهم. وقد بين الله تعالى في سورة النحل على من يتسلط الشيطان عليه، فقال الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ

﴿هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ فالذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ليس للشيطان عليهم سلطان ولا قدرة، فسلطانه عنهم منتفي، لأنهم اتخذوا الشيطان عدواً لهم، فانتفى عنهم تسلط الشيطان عليهم، وأما تسلط الشيطان فمحصور على الذين يتولونه، فيتخذونه من دون الله تعالى ولياً، فتخلوا عن ولاية الله تعالى إلى ولاية الشيطان. أولئك الذين هم به مشركون.

وبعد أن ذكر الله تعالى مآل الأشقياء، وبيان مخاطبة إبليس لهم ذلك اليوم، انتقل الوصف إلى حال المؤمنين، الذين هم أهل السعادة، فَيُظهر التفاوت، ويظهر أثر الطاعة لله تعالى، فلم تكن هناك خصومة، بل كانوا في سلامة من ربهم تبارك وتعالى ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ بدأ الوصف الكريم من الله تعالى بذكر دخول المؤمنين الجنة، وورد وصف دخولهم الجنة بالكلمة الفعلية ﴿ وَأُدْخِلَ ﴾ والتي تبين أن دخولهم ليس منهم، بل أُدخِلُوا بفضل الله تعالى ومشيئته وتيسيره وتوفيقه عَزَّ وجل ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحة أدخلهم الله تعالى بتوفيقه وتيسيره مباشرة إلى ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ وهي جمع جنة، لتفيد التعدد والكثرة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ تتخللها أنهار عديدة، ليدل ذلك على عظمة نعيمها ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ماكثين فيها مكوث خلود، لا نهاية له، ومن جميل التكريم أن دخولهم ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ بما يفيد العناية والتكريم، فهو بكرم الله تعالى عليهم، ولطفه وعنايته وهدايته لهم. ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ فيحي بعضهم بعضاً بالسلام. وكذلك يشمل ذلك تحية الملائكة لهم بالسلام.

ومن دقائق البيان الكريم أن الذين أدخلهم الله تعالى به الجنة هو أنهم اتصفوا بصفتين عظيمتين: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فالصفة الأولى: ﴿ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما والصفة الثانية: هي ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي عبادة لله تعالى بطاعته. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح

ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا وفي الآخرة. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها،

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ
﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ
وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾
جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

ينتقل السياق الكريم إلى تفصيل وبيان الفرق بين كلمة الإسلام، وما يحمله من دلالة الإيمان والتوحيد والخير، وبين كلمة الكفر، وما تحمله من دلالات الشرك والباطل والشر، وذلك بضرب المثل الدقيق في البيان والمحتوى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبدأ البيان بقوله عزَّ وجل ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فهو سؤال استفهام، لكنه تقريري، بسبب ما يدركه المخاطبون بعقولهم التي وهبها الله تعالى لهم. وهو سؤال يشد الذهن والانتباه والحس إلى المثال المضروب، الذي سيذكره الله سبحانه تعالى، لبيان حقيقة الكلمة الطيبة التي لا يمكن أن يعارضها عاقل، لما جُبِل عليه الإنسان من محبة الكلمة الطيبة، وقوة تأثيرها على النفس. وبالتالي أعطى وأفاد السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عَمَّا هو متقرر ومعروف في فطرة ومشاعر ونفس الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الإقرار بالحقيقة والبرهان والدليل المضروب له بالمثل.

وقد ورد الخطاب مفرداً ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وإن كان موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، لتعظيم شأنه وشأن مضمون المثل المضروب، ولكن سياقه يفيد العموم، دون تحديد وتعيين مُخَاطَباً بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص. لأن في إفراده ما يفيد التعميم، بأنه لكل أحد من الناس، بأن خاطبه الله تعالى بذاته، ليقيم عليه الحجة بهذا المثل المضروب منه عزَّ وجل، وهذه دقة في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، وفي بلاغة بيانه، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية. فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير التأمل، وإثارة الترقب والمتابعة لعظيم ما بعده من التوجيه والبيان الرباني الكريم، ثم أعقبه بكلمة ﴿ كَيْفَ ﴾ التي تزيد من استحثاث الفكر والتفكير فيما بعده من توجيه، وما يستوجب من التأمل ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ والخطاب موجه للنبي صلى الله عليه وسلم، ليفيد المزيد من التعظيم، وإن كان هو لكل الْمُخَاطبين، وذلك لقوة بلاغة سياقه التي استوعب بها السؤال جميع أنواع المخاطبين.

فجاء بصيغة السؤال ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ فهو سؤال تقريري يقرر به الحقيقة التي تضمنها المثل، وهو سؤال استنكار، إذ كيف يفوتكم دلالة هذا المثل المضروب لكم. فتأمل كيف أن للكلمة الطيبة عموماً، والتي خُص بها كلمة التوحيد، وما تضمنه الإسلام، فهي كلمة تحمل البر والخير، ليتسع بها ذهن الْمُخَاطب، من المسلمين والكافرين، فأما الكافر فليتأمل ويستنتج بعقوله فضل الإسلام، وما جاء فيه من الخير، وشناعة الكفر وما يحمله من الخبث، وأما المسلم ليتعلم فضل الإسلام، وما يحققه له، وغير ذلك من العلم الكثير الذي لا حصر له. ومن جميل البيان أن أسند الله تعالى ضرب المثل له ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا ﴾ فيزداد بهذه الإضافة وهذا الإسناد عظمة وأهمية.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ شهادة: لا إله إلا الله ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء، وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد، وغير واحد: أن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين، ووقت، وصباح، ومساء[١] فاستوعبت الكلمة الطيبة جميع الأعمال الصالحة، وأنها متمثلة بثبوت الأصل ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ فلو لم يكن لها أصل ثابت وهو الإيمان، لما

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤٩)

بقيت، وما ارتفعت، وما خرجت، ولم يكن لها أثر، ولَمَا ارتفع شأنها، مما يفيد أن كل شيء مربوط بأصله، وأن الأصل هو القاعدة التي تتحكم في قوته وثباته، وما يقوم عليه ويخرج منه، فمن كان ذو أصل قوي بالإيمان فإن الطيبات تتوالى منه، ولا تتوقف، وكلما زاده الله تعالى من فضله زاد من فعل وقول الطيبات، في جميع أوجه الخير. ومما استقوت به هذه الكلمة الطيبة أن فرعها شامخ ﴿ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إنه يصل إلى الله تعالى بقوته وفضله وكرمه وإحسانه، فشبه قبولها ونفعها بقوة أثرها، وامتدادها وارتفاعها حتى تعانق السماء، كما وصف قبولها بالعلو والمكانة من الله تعالى، الذي رفعها لتعانق السماء.

ثم يبين الله تعالى امتداد أثر هذه الكلمة العظيمة الطيبة، وعدم توقف عطائها ﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فهذا النوع من الشجر يؤتي منتوجه في كل وقت، فلا ينقطع بالمواسم، كالأشجار الأخرى، بل له خاصية العطاء المتتالي، فجملة ﴿كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ تفيد عدم قَصْر العطاء على الوقت، وعلى زمن معين محدد، أو اللحظات التي تتحكم فيها المواسم، بل أثبتت دلالة جملة ﴿كُلَّ حِينٍۭ ﴾ العطاء المتتالي والمتعاقب الذي لا ينقطع، فكذلك المؤمن، فإن عبادته وعطاءه من الخير لغيره لا يتوقف، وفي كل وقت وحين، وفي كل وجه، فلا يتوقف على موسم معين محدد، وبالتالي ثوابه لا يتوقف، فهو يتتالى، ويتعاقب، بل ويتكاثر ثمار ما ينتج عن توحيده وإسلامه وعبادته وصلاحه ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فهو عطاء مُكَرَّم من الله تعالى، لأن جملة ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ تفيد أن ذلك بمشيئته وإرادته، وهي تحمل دلالة التوفيق، والتشريف، والمعونة، والتسديد، والكمال، والحسن، والقبول، لأنها أتت ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ فهي في مقام محمود معضود بالتوفيق والقبول والبركة من الله تعالى.

ثم يبين الله تعالى الهدف والغاية من ضرب الأمثال، ليدرك ويفهم الْمُخَاطَب أن ضرب المثل له هدف وغاية في كتاب الله عَزَّ وجل، فيجب أن يفهم هذه الغاية ويعقلها ويحققها ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فإن الغاية من ضرب الأمثال للناس هو ليحققوا بها في أنفسهم ما يتذكرون به الحقيقة التي توصلهم إلى طاعة الله تعالى، وإلى ما ينفعهم، باتباع نبيه عليه الصلاة والسلام، وذلك من خلال مفهوم الأمثال المضروبة له، وما توصلهم إليه تلك الأمثال من الحقائق والمعاني في أدق بيان، وأوضح صورة، فيتعظوا ويعتبروا. لأن في ضرب الأمثال ما يقرب الحقيقة والمعاني في أدق صورة لها.

وقد تضمنت دلالة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما يفيد التحفيز لأن دلالة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا كانت من الله عَزَّ وجل فإنها تفيد التحفيز والاستنهاض للمخاطبين بما خاطبهم ووعظهم الله تعالى به ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلهم يتعظون، وينزجرون عما هم عليه من الكفر، فيتحفزوا وينهضوا عن كفرهم إلى الحق، فيتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ويطيعونه. ولعل المخاطبون بهذا البيان من الناس أن يهتدوا بما تم ضربه لهم من الأمثال، ويتذكروا نعمة البيان الجليلة، فيصححوا أفكارهم، وينهضوا للحق، والتمسك به. ويقوموا بما فيه من الهدى والحق، ويشكروا ربهم على ما هداهم إليه بكتابه وبهدي رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى إيضاح مثل الكلمة الخبيثة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ فإن مثل الكلمة الخبيثة التي تمثل الكفر، وما يلحق به من الباطل فإنها ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الحنظلة ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ قُطِعَت من على سطح الأرض بأسهل وأيسر ما يكون، لأن ليس لها ما يثبتها في الأرض، بل إن في وصفها بالاجتثاث ما يفيد نزعها بكاملها، فلا يبقى لها أثر على الأرض، وجملة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ تدل على عدم عمق جذورها في الأرض، فهي فوق الأرض، أي على سطح الأرض، فأصبحت سهلة الاجتثاث ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ فليس لها ما يقررها من الجذور حتى تغوص بها في باطن الأرض، فتثبتها تلك الجذور في الأرض، كما تثبت النخلة بعمق جذورها التي تغوص بعداً في الأرض، على قدر ما يتناسب ويتوافق مع ارتفاعها، فالنخلة كلما ارتفعت تعمقت جذورها في باطن الأرض.

ثم ينتقل البيان الكريم مباشرة إلى ثمرة الإيمان والطاعة لله تعالى التي مثلتها الشجرة الطيبة ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فإن الله تعالى يتولى المؤمنين في الحياة الدنيا بتثبيتهم على شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وكذلك يثبتهم على الحق والطاعة، ويسددهم ويتولاهم عند ورود الشبهات، ومنازعة الشهوات، فيعينهم إعانة تثبتهم على الحق ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وكذلك يثبتهم في الآخرة، ابتداء من لحظات الموت، إذ يثبتهم على دينه تبارك وتعالى، وعلى

شهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكذلك يثبتهم في القبر عند السؤال، حين تسألهم الملائكة، من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما الظالمين، فكما قال تعالى عنهم ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فلا يوفقهم للصواب في الدنيا، جزاء لكفرهم، ولا يوفقهم عند الموت، ولا في القبر، وقد سماهم الله تعالى ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا غيرهم بتشجيعهم لهم على الكفر، وأفسدوا في الأرض بأعمالهم وأقوالهم واعتقاداتهم الفاسدة، فحاربوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يبين الله تعالى كمال مشيئته وإرادته، فقال العزيز الحكيم ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ فإن لله عَزَّ وجل المشيئة المطلقة في أحكامه وتشريعه وقضائه وتدبيره، وفي كل شأن. وليس للمخلوق حق الاعتراض على تقدير الله تعالى وأحكامه، فكلها كمال العدل. مما يبين أهمية التفكير فيما أوضح الله تبارك وتعالى، وأهمية الطاعة لله عَزَّ وجل، فقد أوضح وبين بجميع أوجه البيان. فلله الحمد والشكر، ونسأله الثبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يجعلنا من المؤمنين الصالحين، وأن يُحسن ختمتنا.

ثم يوجه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، وجميع من يشمله هذا الخطاب بالتأمل في تصرف من بدلوا ببعثته صلى الله عليه وسلم التي هي نعمة الإسلام فبدلوها كفراً ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ فانطلق التوجيه البياني الكريم بأداة الاستفهام ﴿أَلَمۡ ﴾ لتلتحق بفعل الرؤيا والتأمل ﴿أَلَمۡ تَرَ ﴾ لشد الذهن والانتباه إلى ملحظ التصرف الذي يتقرر به سوء الفعل، وسوء التعامل من كفار قريش، الذين جاءتهم نعمة الإسلام ببعثته صلى الله عليه وسلم، فاستعاضوا عنها بالشرك.

وقد امتد سلطان دلالتها لتشمل كل من جاءته نعمة الإسلام، فاستعاض عنها بالكفر، فالمقصد بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول ـــأي كفار قريش ـــ وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قَبِلَها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار[1] ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا ﴾ ألم تلحظ فيما ترى من تصرفات كفار قريش، في استبدال ما يجب أن يكونوا عليه بالدخول في الإسلام، إلى الاستعاضة عنه بالشرك، فوضعوا ما يجب أن يخرجوا منه في محل ما يجب أن يكونوا عليه من نعمة الإسلام. فقد وضعوا نعمة الإسلام وما تستحقه من القبول والفرح بها، في غير موضعها،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٥٤٩)

إذ وضعوا الكفر مكان ما يجب أن تكون فيه نعمة الإسلام، لقد وضعوا الشيء في غير موضعه الذي يجب أن يكون فيه، فقد وضعوا نعمة نبوتك التي ترفع شأنهم بين جنس العالمين، وضعوها في موضع العداوة، ووضعوا نعمة القرآن الكريم الذي يرتقي بهم في موضع الرفض والتكذيب. فكان الأولى بهم قبوله والترحيب به، لكنهم أحلوا مكان التصديق به: التكذيب به، والرد والإنكار، وأحلوا مكان القبول: الرفض والاستهزاء والمحاربة، لقد شَكَّل تصرفهم مجموعة من تناقضات التعامل مع نعمة الله تعالى المتعددة. فإنه بيان عظيم في مبناه ومعناه، وتصويره للواقع.

وقد نقل أهل التفسير أقوالاً في ذلك، ورجح ابن كثير رحمه الله تعالى قول ابن عباس رضي الله عنهما، أنهم كفار أهل مكة، وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قَبِلَها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار[1] وقيل أنها عامة في جميع المشركين، قال المفسرون: وتبديلهم نعمة الله كفراً، أن الله تعالى أنعم عليهم برسوله عليه الصلاة والسلام، وأسكنهم حَرَمَه، فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به، فذلك قوله عَزَّ وجل ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ أي: الهلاك، ثم فسر سبحانه وتعالى الدار بقوله عَزَّ وجل ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: يُقاسون حَرَّها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ بئس المقر هي[2] وكلمة ﴿وَبِئْسَ ﴾ استوفت جميع أنواع المذام، فإنه وصف قد اجتمع فيه كل ما يمكن من أوصاف الذم.

ومن دقائق البيان وفوائده العظيمة الجليلة أن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ وردت مفردة، لتعني أن المخاطب الأول بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ولتستوعب كل أحد بمفرده، أنه مخاطب بجملة ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ وأنها عامة من حيث الزمان والمكان، لتشمل جميع المخاطبين عبر الأزمنة المتعاقبة، فيما يبصرونه ويرونه، فتقع رؤية كل أحد على كل مُبَدِّل لنعمة الله تعالى بعد معرفتها، والاستعاضة عنها بالكفر، ودلالة الكفر تشمل الشرك، وكفر الإنكار، الذي هو ضد الإيمان والإسلام، وتشمل نكران النعمة عموما. وجملة ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ تحمل أيضاً دلالة التأمل والتعجب من كل أحد يتعرف على نعمة الإسلام ثم يستعيض عنها بالكفر، فإنه تعجب من حال كل إنسان عرف الخير وهجره إلى ما هو ضده، وربما عاداه وحاربه.

(١) المرجع السابق (٢/٥٤٩)

(٢) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٦٦)

وفي قوله تعالى ﴿ وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ أي: فأسكنوا وأنزلوا قومهم دار الهلاك والخسارة والحرمان من الخير بسبب تقليدهم وتأسيهم بهم، مما يبين مخاطر التقليد والتأسي والمتابعة للكبراء من غير وعي ولا علم وإدراك للحقيقة، مما يوجب أهمية التثبت في الحق، وعدم الغرور بالغير، فإنه قد يذهب بالإنسان إلى المجاهيل والمخاطر. وكلمة ﴿ وَأَحَلُّواْ ﴾ من الإحلال، فكانوا سبباً في إحلال وإنزال قومهم الذين اتبعوهم في ﴿ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ﴾ التي هي دار من خسر وهَلَك، فلحق به الدمار والهلاك الذي لا مخرج له منه. فإنه تصوير في غاية البيان، ليتحقق به الإنذار من الله تعالى، وكشف الواقع، وما سيؤول إليه في الدار الآخرة التي لا مجال فيها للإعادة والإصلاح. وكلمة ﴿ وَأَحَلُّواْ ﴾ تفيد الماضي، والحديث عما هو قادم، لأنه متحقق من الله تعالى، فكأنه وقع بهم، فصور وأظهر لهم سبحانه وتعالى المستقبل في حالة وصورة المتحقق، لما له من الأثر في التوجيه والتحذير. وليدل على كمال القدرة وإثبات التحقق، وكأنهم ينظرون إلى ما سيكونون عليه.

ثم بعد وصف مكان الإحلال من حيث الخسران، بين الله تعالى صفة دار القرار ﴿ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ فيقاسون شدة حرها. وتكشف جملة ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ معاناتهم فيها ﴿ يَصۡلَوۡنَهَا ﴾ فإنهم يُقَاسُون شدة لظاها وسعيرها بدخولهم فيها، كما يفيد معنى الصلي: الشواء بالنار، فيشتوون فيها مثل ما تُشوى اللحمة على النار، مع الفارق بين نار الدنيا ونار جهنم. فهو تصوير دقيق لدار قرار الكافرين.

ثم يخبر الله تعالى بالذي صنعوه في الدنيا، فأولئك الذين أحلوا قومهم دار البوار، قاموا بتبديل نعمة الله كفرا، فقد كانوا أئمة للشرك ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ فالذي قاموا به أن جعلوا لله تعالى شركاء من الأصنام ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ وسماهم الله تعالى أنداداً لبيان حقيقة عبادة المشركين لتلك المعبودات، بأن جعلوها مماثلة لله تعالى، أي نظراء وشركاء له عَزَّ وجل، فسبحانه وتعالى عما يشركون. ﴿ لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ ليضلوا العباد كما ضلوا أنفسهم عن سبيل الله تعالى، الذي هو الطريق المستقيم، والذي هو دين الإسلام، وذلك بسبب ما جعلوه لهذه الأصنام من الحق في العبادة، فيضاهون بعبادتها رب البرية، فسبحانه وتعالى عما صنعوا ويصنعون ويعبدون.

ثم يخبرهم الله تعالى بمصير هؤلاء المشركين الكافرين بأنهم إلى النار يحشرون، وقد أورد البيان سبحانه وتعالى بأسلوب التهديد التقريع، والذم التوبيخ ﴿ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ فاستمتعوا

بشهواتك في الدنيا، ليتحقق لكم بذلك دخول النار. وقد جاء التوبيخ من خلال الإخبار لهم ﴿ قُلْ ﴾ بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى له عنهم ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فيكون الرسول صلى الله عليه وسلم نذيراً ومخبراً لهم في حياتهم الدنيا، ويكون العلماء الذين هم ورثة الأنبياء مخبرين لغيرهم من بعده صلى الله عليه وسلم، لأن العلماء ورثة الأنبياء، فقل لهم أيها النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ استمتعوا بشهواتكم في الدنيا، ولكن النهاية والمصير هي النار لكم في الآخرة، والتي تم وصفها لكم بأنها دار القرار الذي لا خروج منها، فهي المستقر النهائي. وهي تفيد تأملوا وقارنوا بين استمتاعكم بالعناد والكفر، وبين مآلكم، ليفيد أيضاً التحذير من هذا المصير الذي يستوجب الترك لما أنتم عليه من الكفر قبل أن تُدركوا هذا المصير المهين المقيم.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عباده المؤمنين بأن عليهم المزيد من الطاعة، قبل انتقالهم ليوم القيامة الذي لا تنفع فيه الصداقات، ولا تنفع فيه الفدية، ولا شفاعة أحد من العالمين حين يلقي العبد رَبَّهُ تبارك وتعالى، وقد ورد البيان من الله تعالى بموعظة عظيمة، مفادها الخطاب عن صفة عباده الصالحين، ومع ذلك يحذرهم من يوم تنعدم فيه الفدية، ومنافع الصحبة، وفيه تعريض للمشركين والكافرين عموماً ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ابتدأ الخطاب الكريم من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بفعل الأمر ﴿ قُل ﴾ ليفيد تعظيم الخبر المنقول عن الله تعالى لعباده على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، بما يفيد تعظيم المقول وتعظيم منزلة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأنه هو المخبر والقائل عن الله تعالى.

ومن جميل القول أن الله تعالى رفع منزلة هؤلاء العباد، بأن أضافهم تبارك وتعالى لنفسه ﴿لِّعِبَادِىَ﴾ ليفيد التكريم، وعظيم الحظوة والشرف، بأن نسبهم إليه عَزَّ وجل، وهم المتصفون بثلاث خلال، جامعات للخير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ فالصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التي تجمع توحيد الله تعالى، والتصديق به عَزَّ وجل وبرسله، وملائكته، وكتبه، وباليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث والنشور، وبجميع ما جاء عن الله تعالى، وما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم، فاستوفت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ جميع أركان الإيمان وما يتعلق بها.

والصفة الثانية: مأمورون بأدائها والمحافظة عليها، وهي: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيؤدوا عبادة الصلاة كما أداها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبر بها، ووصفها لهم، وجاء التنويه عنها بكلمة ﴿يُقِيمُواْ﴾ التي تعني إنشاء قياماً مخصوصاً متضمناً للجد والاهتمام بها، ورعايتها، والمحافظة عليها. وفي ذكر الصلاة بعد الإيمان ما يدل على منزلتها وشرفها ومكانتها العظيمة الجليلة، التي يلزم من المسلم العناية بها، فينشئ لها قياما خاصاً يليق بها، ولا يجعل القيام لها بسبب غيرها، وبسبب شأن آخر، بل قياماً خاصاً يعبر عن إجلالها، ولا يمنع أن يلتحق بها غيرها من أمور الإنسان الأخرى.

والصفة الثالثة: مأمورون بأدائها والمحافظة عليها، وهي: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ والإنفاق هو البذل والعطاء، وجاء الإنفاق بصيغة المضارع ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ ليفيد التحريض على المداومة في الإنفاق، والاستكثار منه، فلا تجعلوه أمراً منقطعاً، أو على سبيل الندرة، بل على سبيل الدوام. وليشمل الإنفاق جميع درجاته، كالواجب في الزكاة، والنفقة على الزوجة والعيال، ومن يلزمه نفقتهم، وكذلك الإنفاق على الأقارب، والأباعد، من غير تحديد، بل ليشمل كل ما يمكن أن يكون مجالاً للإنفاق، من غير تحديد وتعيين، وهذه من بلاغة البيان، وغزارة بلاغته، أن استجمعت الكلمة جميع المقاصد، وجميع أوجه الإنفاق. وتضمنت جملة ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ جميع أصناف الرزق، فليس محصوراً في نوع محدد، لتستوعب قدرات المنفق بحسب ما لديه، وتستوعب احتياجات غيره إليه. ومن دقائق البيان أن الله تعالى نسب ما عند عباده من الرزق له عَزَّ وجل ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ فما عند العبد من الرزق فإنه من عند الله تعالى، فهو الذي وفق ودبر العبد لتحصيل الرزق الذي عنده، بما يفيد أنه لولا توفيق الله تعالى للعبد لما حصل على ما عنده من الأرزاق، ليفيد أن الذي أعطى هو الذي أمر بالإنفاق، وهو الذي يخلف على من أنفق، وعلى العبد أن يتعامل في الإنفاق على هذا الوجه، مما يربي في المؤمن المبادرة إلى الإنفاق بسخاء الواثق بالله الرازق الكريم، ولذلك

كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفق نفقة من لا يخشى الفقر، لثقته وعلمه بأن الرزق من الله تعالى، وأنه هو الذي يخلف على المؤمن بما هو خير وأحسن. وكذلك تفيد جملة ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ التبعيض، أي فليس كل ما رزقناكم، بل أنفقوا منه، ليستوعب الأمر اختلاف الحاجة، واختلاف القدرات، والكثرة والقلة، والنوع والكيفية. فيختلف باختلاف القدرات والحاجات والنوع والمقدار. مما يبين أن منهج هذا الدين هو منهج التكافل والتعاون، والكرم والسخاء. وما يتولد عنه من التواد والتآخي.

وأما حالات الإنفاق، فهي حالتان ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ فالحالة الأولى: ﴿سِرًّا ﴾ وهي التي تعني اخفاء ما ينفقه المنفق، حتى لا يعلمه إلا المنفق والمنفق عليه، والتي انتفت منها مقاصد الرياء، والحالة الثانية: ﴿وَعَلَانِيَةً ﴾ وهي التي تعني الجهر والظهور، فإن واقع الحال قد يفرض علانيتها، ولا مجال لإخفائها، ولكنها ليس فيها رياء ولا سمعة، وإنما وردت علانيتها من الحال التي لا مجال فيها للإخفاء، كأن يجتمع قوم أو جماعة من الناس على إعانة محتاج، فيتقاسمون تلك الإعانة. وفي اجتماع السر والعلانية في الإنفاق ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ ما يدل على كثرة الإنفاق في هذين الوجهين ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ فبادروا في أوجه الإنفاق من قبل أن يأتي يوم القيامة، الموصوف بحاله التي يتعذر فيها الإنفاق، لتخليص النفس من عذاب الله تعالى، فلا بيع يبيعه ليستفيد من ثمنه، ولا صديق يدفع عنه ما استوجب من العقوبة ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ ﴾ فلا عوض فيه عن ذلك ﴿وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ ولا خليل من الأصدقاء والأحباب، فيدفع عنه ما استوجب من العقوبة، فليس هناك في ذلك اليوم إلا ما قدمه المرء في حياته لنفسه. مما يفيد الوعظ والإرشاد بأن على الإنسان أن ينتفع في حياته بما يستطيع لذلك اليوم، من الإيمان، وأداء الصلاة، والعبادات، والإنفاق من رزق الله تعالى في السر والعلن، فلا يتوقف عن ذلك أبداً، فإن أمام العباد يوم لا بيع في ولا إعانة معين، فإنه يوم حساب، وجزاء، فلا يستطيع أن ينتفع العباد في ذلك اليوم بأي وسيلة كانت، فليس للمرء إلا ما قدم في حياته. فلا يشغلنك أيها المؤمن عن ذلك شيء في دنياك. ففي الدنيا بيوع وخلال ومكاسب ومرابح وصداقات، وفداء وشفاعات، فانتفعوا بما في الدنيا للآخرة التي لا مجال فيها للوقاية من عذاب الله وعقابه بأي وسيلة من وسائل الدنيا. فكل نفس بما كسبة رهينة. وفي نص الآية الكريمة حث العباد على الإيمان وأداء الصلاة والإنفاق.

ومن جمال البيان، وعذوبة الأسلوب أن وردت الآية الكريمة في وصف عباد الله تعالى على أنهم موصوفون بالإيمان من ربهم تبارك وتعالى، وهذه تزكية عظيمة المقام ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بأن يلزموا ويثابروا على عبادة الصلاة، وأدائها على كمالها، وأن يجتهدوا في الإنفاق سراً وعلانية، وأن يستزيدوا، حتى لا تمنعهم علانية الإنفاق عن التوقف خشية الرياء، فليس كل معلن ظاهر هو رياء، فإن نية الإخلاص لله تعالى

تمنع العبد المؤمن من أن يرائي بما ينفق ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ وورد الأمر بإقامة الصلاة بصيغة الفعل المضارع، وكذلك الإنفاق ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ ﴾ مما يثبت أنهم يقيمونها، وأن هذا التوجيه الكريم هو تحريض على المداومة والاستمرار، والمزيد من الحرص ليعطي دلالة المبالغة في ذلك. وعدم الانقطاع، أو التراخي.

ثم ينتقل السياق الكريم في تدرج بديع إلى عظيم خلق الله تعالى، وما أنعم به على عباده من الشواهد المحسوسة الدالة على أنه هو الرزاق الذي رزق عباده، فإن إنفاقهم هو إنفاق مما رزقهم الله تعالى، فكأنهم وكلاء في ذلك، فلا تمتنعوا عن الإنفاق سراً وعلانية ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾ فبدأت الآية الكريمة باسم الجلالة الذي أوجد الوجود ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ولتفيد مع ما بعدها من البيان: الحصر لكل ما ورد في الآية الكريمة أنه لله تعالى، إنشاء وتدبيراً، ومن دقته أن أردف ذلك بأداة ﴿ٱلَّذِي ﴾ التي أفادت معنى ثبوت الخلق له وحده سبحانه وتعالى، حصراً ولا مجال للشك فيه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي خلق لكم السماء المرفوعة، وما فيها من لأجرام، والنجوم ، والشمس والقمر، وكذلك خلق لكم الأرض التي تعيشون عليها، وما تشاهدونه مما حوته، وما تحسونه عليها كالهواء والضلال، ففي الأرض من دلالات ربوبيته ووحدانيته ما يوجب عليكم الإيمان والتصديق.

وأن مما يدل على عظمته جَلَّ جلاله، إنزال الماء من السماء ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾ فربكم هو الذي أنعم عليكم بنعمة الأمطار، وما يتعلق بنزوله من الإنبات بهذا الماء الذي أنزله، وقدَّر مقدار كميته، وأخرج لكم به الثمرات من أجلكم ﴿رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾ فهو من أجلكم أيها العباد. فذكر الله تعالى علة وأسباب إخراج هذه الثمرات بأنها من أجل أن يرزقكم، فأي نعمة أَجَلّ من أن يخلق سبحانه وتعالى الثمرات من أجل إطعامكم به، فأنتم المخصوصون أيها العباد بهذه النعمة، مما يوجب عليكم طاعته وعبادته. فإن في هذا البيان وهذا التنويه من الله تعالى ما يستحث العباد على طاعة من أحسن إليهم بهذا الإحسان العظيم.

ومن الإعجاز في البيان أن الله تعالى لم يذكر المطر، والشجر باسميهما بل بما يحصل منهما، فبالمطر يحصل الماء، فذكر الماء الذي يمثل المحصلة من نزول المطر ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وكذلك لم يذكر سبحانه وتعالى الشجر، بل ذكر المحصلة من الشجر، وهي الثمار ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ لشد الانتباه للمقصود الذي هو ثمرة الشيء، وكذلك هو الأقرب الذي يهم المُخَاطب، ويشغل ذهنه، وهو الأقرب للتفاعل مع الخطاب، وهذه من دقة البيان، وبلاغة السياق، وإعجاز المعاني والدلالات، مع مناسبتها للمقصد والمراد بأدق الألفاظ. وجميع ذلك إعجاز في البيان وإعجاز في المعاني، وإعجاز في الدلالات، مع الإعجاز في العلل والأسباب والمقاصد، وكذلك الإعجاز في الخلق والتدبير.

ثم ذكر سبحانه وتعالى وجهاً آخر من الرزق المخصوص، وهو التسخير والتذليل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ فقد سخر وذلل لكم أيها العباد ما تركبون في البحر من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ وهي السفن، فتبحر بكم من مكان إلى مكان، وقد جمعت جملة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ إنشاء السفن، فهداكم لاختراعها وابتكارها، ويسر لكم المادة التي تصنعون منها، وهداكم لركوبها، وحَمْل متاعكم وتجارتكم عليها، وسخر لكم البحار التي تسير عليها الفلك، فتعبر بين أمواجه العاتية بيسر وسهولة، من غير أن يغرقكم البحر بأمواجه العاتية، فإن تسخير الفلك في هذا المقام أقوى وأبلغ من أن يذكر سبحانه وتعالى تسخيره للبحر، لأن تسخير الفلك متضمن لما هو متعلق به، من تسخير البحر والرياح والأمواج. وعَبَّر عن مسيرها في البحر بالجريان ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لتستوفي كمال تسخيره سبحانه وتعالى للرياح التي تدفع الفلك، حتى تجري بكم في البحر جرياناً ليس بالبطيء، بل موصوف بالسرعة التي عبر عنها الجريان، فتقصر عليكم المسافة، ويقصر عليكم زمن السفر، مع تسهيل سيرها فوق مياه البحر.

ثم أظهر تبارك وتعالى عظمة نعمته على عباده بهذا التسخير، فأوضح عَزَّ وجل أن هذا الجريان هو بأمره عَزَّ وجل ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فليس جريانها هو فقط للعلل والأسباب التي ترونها، بل لأنه أمر البحار أن تحمل الفلك فوق مياهه، ويسر وصخر الأسباب وطَوَّعها، وأمر الرياح أن تدفعها في اتجاه أسفاركم، وكلمة ﴿وَسَخَّرَ﴾ تفيد كمال التذليل للأسباب التي يحصل بها جريان السفن. ويحصل بها التسخير على مراد الله تعالى وتدبيره، وكل هذا ليحصل بها منكم: الشكر والثناء على لله تعالى بهذا التسخير، وأن تلزموا طاعته، والتفاني في عبادته وحده لا شريك له.

ومن مزيد النعم الجليلة، وجود الأنهار التي خلقها الله تبارك وتعالى، مسخرة لعباده، ليقضوا منها وعليها حوائجهم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ فقد ذكر عَزَّ وجل قبلها تسخيره للفلك التي تجري في البحر، وهنا ذكر تسخير الأنهار، لأن الانتفاع بالأنهار هنا أظهر للعباد، لما تتميز به الأنهار عن البحار بالسقيا والشراب، فتشربون منها، وتسقون بها الأشجار، وكذلك هي ممرات بين المدن والقرى، وتجري عليها السفن، إضافة إلى استخراج الأسماك منها. وفي ذلك لفتة كريمة، لإدراك الفرق بين البحار والأنهار، من كل وجه، فمن الذي سخر هذه البحار والأنهار، وخلق الفوارق بينها بما يلبي حاجاتكم، فهل هناك إله مع الله؟ فتعالى الله عما يشركون. وكذلك نسب سبحانه وتعالى التسخير له عَزَّ وجل ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ فهو الذي سخرها، وجعلها تجري في ممرات محددة، ولو شاء لجعلها على سطح الأرض من غير ممرات، ولتأذيتم منها، وهذا التسخير هو لكم، ومن أجلكم، فما الذي يستحقه من أنعم عليكم بهذه النعمة، أليس طاعته وشكره وعبادته وفق ما أمر سبحانه وتعالى؟

ثم ذكر جَلَّ جلاله أنواعاً أخرى مما سخره لعباده ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فأنشأ وهيأ الله تبارك وتعالى الشمس والقمر بما يناسب حاجاتكم وانتفاعكم بهما، وضبط حركتهما ضبطاً محكماً على عادة جارية ثابتة، لتنتفعوا بهما. بل جعل الله تعالى هذا التسخير من أجلكم أيها العباد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ فكلمة ﴿لَكُمُ﴾ توضح وتبين أن مراد الله تعالى من خلق الشمس والقمر هو لينتفع بهما العباد، فيعرفوا بهما حساب الأيام، والمواقيت، وآجال العقود، وما يتفقون عليه، وليكون النهار مبصراً بشمسه، فيقضون حوائجهم، ويطلبون فيه معايشهم، وليكون النهار راحة للأبدان، والأنفس، وستراً لهم فيما يحتاجونه من الستر. ووصف تبارك وتعالى حركة الشمس والقمر بأنهما ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ أي: على وتيرة واحدة، ممتثلين لأمر الله، فلا يتغيران ولا يتبدلان عن سيرهما وعن مسارهما، بل يسيران وفق عادة جارية، على ما قدره وقرره الله سبحانه وتعالى، وكذلك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فذلل وهيأ الليل والنهار لكم، في تعاقب مستمر، على عادة جارية لا تتغير ولا تتبدل، وتارة يأخذ الليل من النهار، فيطول قليلاً، ويقصر به النهار قليلاً، وتارة يأخذ النهار من الليل قليلاً، فيطول النهار ويقصر به الليل قليلاً، في حركة دائبة لا تتبدل ولا تتغير.

ومن جميل البيان ودقته أن عطف الله تعالى جملة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ على جملة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ فقدم المؤثر الذي هما الشمس والقمر على المتأثر، وهو الليل والنهار، فيكون النهار نتيجة ظهور الشمس، ويكون الليل نتيجة غيابها، مع ظهور القمر، ليستثير التأمل

والتفكير في العلاقة الترابطية بينهما، فإنها دقة في الخلق والتدبير، ودقة بيانية عظيمة في ترتيب الدلالات وإبراز الآيات، فالليل يمحوه النهار بنور شمسه، والنهار يمحوه الليل بظلامه، ويظهر القمر بضيائه. فإن حق الذي أنعم عليكم بتسخير الشمس والقمر، والليل والنهار في تعاقب مستمر هو أن تشكروه، وتطيعوه، وتعبدوه، وتوقروه، خاصة مع إدراككم لهذا التفصيل العظيم، فإنها آيات عظيمة، تدل على وحدانية الله تعالى، وألوهيته، وربوبيته، كما أنها دالة بهذا التفصيل الدقيق، والتقرير المبين أن هذا القرآن هو من عند الله تعالى، وأن الذي نزل عليه القرآن هو نبي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلا مجال ولا عذر لكم.

فبعد أن ذكر الله تعالى بعض تفاصيل إنعامه، يخبر عَزَّ وجل بعموم ما امتن به على عباده، بأن هيأ لهم ما يحتاجونه ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فقد أعطاكم وهيأ لكم ربكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم، مما سألتموه بحالكم، الذي يبينه واقع شأنكم، ومما سألتموه طلباً بقولكم ودعائكم ورجائكم. وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى عن بعض أهل العلم في معناها، أي: ما سألتموه وما لم تسألوه[1] فكم من أشياء سألها العبد من الله تعالى فأعطاه ما طلب، وأجزل في العطاء، وكم من حاجة بادر فيها بالعطاء من غير سؤال، وكم من حاجة خطرت في النفوس، فأعطاها من غير ما سؤال، وكم من حاجة استبعدها العبد، فجاءت بكل يسر وسهل. وكم من رغبة في أمر قد طلبها الإنسان، فأجلها العليم الحكيم ولم يحققها في حينه، تدبيراً حكيماً لشأن عبده. وكم من أمر طلبه العبد فمنعه من تحصيله، رحمة به، لعلمه العظيم بضرره وخطره على من طلب، وجهل العبد بضرر ما سأل، وذلك من رحمته، وهنا تظهر الحكمة من وجود حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ التي أفادت التبعيض، من بعض ما سألتموه، بينما أفادت دلالة ﴿مِّن كُلِّ﴾ التكثير، وفيض نعمة العطاء، وتغليب الإنعام والعطاء، فالحمد له تبارك وتعالى على كريم عطائه ومنعه وتدبيره الحكيم.

وكل ذلك تفصيلاً لآياته الدالة عليه سبحانه وتعالى. وقد ذكر ابن الجوزي أقوال أهل التفسير في ذلك، فتضافرت دلائل معانيها، وما أشاروا إليه من حقائق: فقيل في معناها: من كل الذي سألتموه، وقيل: من كل ما سألتموه لو سألتموه. وقيل: وآتاكم من كل شيء ما سألتموه شيئاً، فأضمر الشيء. وقيل: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، لأنكم لم تسألوا شمساً ولا قمراً، ولا كثيراً من النعم التي ابتدأكم بها[2] وهذه الأقوال تتعاضد في مجموعها ولا تتعارض فيما بينها، لتعطي غزارة معطيات السياق، الذي استوعب جميع تلك المعاني والدلالات. فسبحان من أظهر آياته حتى في عظمة كلامه تبارك وتعالى.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٦٨٢-٦٨٤)

(٢) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٦٧-٢٦٨)

ثم ذكر الله عزَّ وجل عظيم نعمته التي لا حدود ولا حصر لها، بما يعجز عن تعدادها وإحصائها العباد. فقال جَلَّ جلاله ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ وفي هذا تأكيد لقوله تعالى ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ بحيث لا تستطيعوا تعداد وإحصاء وحصر نعمة الله تعالى عليكم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ فلو تأمل العبد فقط فيما أنعم الله تعالى عليه من مكونات بناء جسده، وما فيها من الحواس، والقدرات، والعضلات الجسدية، لما استطاع حصرها، فكيف بما يحيط به، من النعم، وما سهله عليه مما يحتاجه، كالمال والذرية والكسب، والزروع، وما يمشي عليه، وما يمشي به، وما يقضي عليه حاجاته، وما يندفع عنه من الأمراض، والشفاء من الأسقام والعوارض التي لا حصر لها، وغيرها مما لا يستطيع الإنسان حصرها. مما أفاد عموم وكثرة النعمة التي لا حصر لها، فإن من كثرتها يعجز الإنسان من تعدادها، فضلاً عن أن يحصيها.

وجاء النص الكريم ابتداء بقوله عزَّ وجل ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ والتي تفيد إن حاولتم تذكر وتعداد النعم، سيعتريكم العجز، فإنه بمجرد محاولتكم سيمنعكم العجز عن تعدادها لكثرتها، فضلاً عن إحصائها بحصرها. ثم أردف سبحانه وتعالى ذلك بالكشف عن حال الإنسان إزاء تلك النعم ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ فعموم جنس الإنسان ظالم لنفسه، ولغيره، وظالم للحق، فذكر سبحانه وتعالى عباده باسم الجنس ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ ليفيد هذا التعميم: التكثير، مما يبين أن القليل هو السالم من هاتين الصفتين الذميمتين. كما وردت الصفتين بصيغة المبالغة ﴿لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ لتفيد كثرة وقوع الظلم منه، وكفرانه للنعمة، وذلك بعدم شكرها، وعدم استعمالها فيما خلقت من أجله، وإنكارها، والتي منها نعمة الإسلام.

كما قال الله تعالى في سورة هود ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾ فإن جنس هذا الإنسان، إذا أدركته رحمة من الله تعالى بما يُنعم به عليه سبحانه وتعالى من أنواع رحمته، ثم ينزعها الله تعالى منه، فإنه يحصل له أمران: الأول: هو اليأس. والأمر الثاني: الجحود. فينكر ما كان فيه من النعمة، بجحودها، ونسيانه لها، وكأنه لم يكن في نعمة من قبل. ولئن أصابته النعمة بعد فقده لها، أو قلتها، انتابه الفرح والفخر الذي يخرج به عن الحق. ثم استثنى سبحانه وتعالى المؤمن الذي يصبر على البلاء، ويشكر حين الرخاء.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ
أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً
مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا
نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى
ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ
رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله عَزَّ وجل ما أنعم به على عباده أجمعين، بما يوجب عليهم شكره وطاعته وعبادته، ذكر سبحانه وتعالى خصوصية نبيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، في امتثاله لطاعة ربه تبارك وتعالى، وما خص به مكة وأهلها من الفضل والخير، واستعاذة إبراهيم من عبادة الأصنام، وما ينجم عنها من خطر عظيم. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ فخاطب اللهُ تبارك وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن يذكر لقومه، ولغيرهم قول إبراهيم في دعائه لربه تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ فقد بدأ إبراهيم دعاءه لربه تبارك وتعالى بدلالة الربوبية ﴿ رَبِّ ﴾ ليفيد التضرع والخضوع والخنوع لله تعالى في طلبه، أي: يا رب، ومن فوائد هذا النداء: أنه نداء بربوبيته سبحانه وتعالى، فهو رب كل شيء ومالكه وخالقه. وفي حذف ياء النداء ما يشير إلى قُرب الْمُنادَى من الْمُنَادِي، كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ ثم بدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمسألة ﴿ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ أي: اجعل مكة بلداً ﴿ ءَامِنًا ﴾ أي: ذا أمن، وأمان. فاستجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده، لأنه إذا انتفى الأمن، لم

يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا[١] مما يدل على عظيم نعمة الأمن في الأوطان، وأنها نعمة جليلة، وأن الذي يحقق الأمن هو الله تعالى بقدرته، وقوته، وحُكْمِهِ وقضائه، فجعل الله تعالى مكة آمنة مطمئنة، لتكون آية من آياته سبحانه وتعالى. وليعرف أهلها هذه النعمة الجليلة، إضافة إلى أنه أسكنهم هذه البلدة التي حرمها تبارك وتعالى، وفي هذا امتنان وتذكير لهم بما امتن الله تعالى عليهم من سكنى مكة، وبما تحقق لهم فيها من الأمن.

ثم سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام رَبَّه أن يوفقه وذريته لتحقيق خالص العبودية له وحده لا شريك له ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: أبعدني، وذريتي عن عبادة الأصنام، وثبتني وإياهم على توحيدك وإفرادك بالعبادة يا ربنا، وجنبنا واعصمنا عن عبادة الأصنام، وهي التماثيل التي يصنعها من يعبدها، بإنشائها من الحجارة وغيرها. وقد أفاد دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام: بأن لا يقتصر الإنسان في دعائه لنفسه فقط، بل يدعو لأولاده وذريته، وأن يسأل الله تعالى الإخلاص له في العبادة، ويجنبه المعاصي التي منها الشرك.

ثم ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام كثرة افتتان الناس بهذه الأصنام التي يصنعونها بأنفسهم، معلناً براءته منها ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وابتدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام سؤاله وتضرعه لربه بتكرير النداء بدلالة الربوبية ﴿رَبِّ﴾ ليفيد المزيد من التضرع في الشكوى والطلب ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إن الأصنام أضلت الكثير من الناس، فأبعدتهم عن إفرادك وتوحيدك، مؤكداً ذلك بحرف التوكيد **(إن)** الذي تصدر ﴿إِنَّهُنَّ﴾ ومقرراً نداءه وسؤاله بتقرير أثر الأصنام على الناس ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فنسب فعل الإضلال للأصنام، قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وهي لا توصف بالإضلال، ولا بالفعل، ولكنهم لما ضلوا بسببها، فكانت كأنها أضلتهم[٢] لتفيد المبالغة في أثرها على الناس، وافتتان الناس بها.

ثم يقرر موقفه ممن آمن، وممن كفر ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ فإن من تبع ديني الذي أمرتني به، وترك الشرك، وما كان عليه من الضلال ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني، ولكن عَبَّر عنها بعظيم البيان ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي: جزء وقطعة مني، بما يفيد أنه كالعضو منه، فمن تبع إبراهيم عليه السلام في دينه فإنه منه

(١) الشوكاني، فتح القدير (١١١/٣)

(٢) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٢٦٨/٤)

كاتصال الجزء بالكل. فجعل الدين هو المعبر عن ذاته، فإن الدين لإبراهيم عليه الصلاة والسلام يمثل شخصه صلى الله عليه وسلم. مما يبين أن العلاقة بينه وبين دينه كعلاقة الجسد الواحد، وأن من دان بدينه، فهو منه لا ينفصل عنه. فأعطت دلالة النص وقوة بيانه عمق العلاقة، وشدة الولع بدينه، وحبه العميق لربه تبارك وتعالى، حتى أصبح الدين يمثله، وهو يمثل الدين، فأفادت وأعطت صورتين عميقتين: الأولى: صورة تعلقه بدينه، وامتثاله لربه عَزَّ وجل، حتى تمثل بالدين والطاعة لله تعالى. وأما الصورة الثانية: فهي متعلقة بالعلاقة بينه وبين من تبع دينه، بأنها تُمَثِّل علاقة الجزء بالكل، فكان قطعة منه. وبالتالي فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ودينه صنوان لا يفترقان، يجمعهما أصل واحد. فكان تعبيراً بلاغياً غاية في تصوير حاله مع دينه، ومع من آمن به. فجاءت في أوضح صورة دلالية، وأبلغ في المعنى وأقواه بياناً. وكيف لا يكون كذلك وهو خليل الله تعالى.

وأما من نأى عن دينه فقال عنه ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: وأما من خالف أمري، فلم يتبع ما دعوته إليه، بأن امتنع من الدخول في ديني ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإنك يا الله متصف بالمغفرة والرحمة، وهي جملة تبين رحمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمن يدعوهم، حتى من لم يتبعه، وعصاه. قال مقاتل بن سليمان رحمه الله تعالى، أي: ومن عصاني، فكفر، فإنك غفور رحيم، أن تتوب عليه، فتهديه إلى التوحيد، وقال ابن الأنباري رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون دعا بهذا الدعاء قبل أن يُعَلِّمُه الله تعالى أنه لا يغفر الشرك، كما استغفر لأبيه[1] وكلا المفهومين لهما وجه في الدلالة، مما يبين غزارة البيان القرآني.

وتفيد دلالة ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التعريض في الطلب، تأدباً مع الله تبارك وتعالى، لأنه لم يقل: ومن عصاني فاغفر له وارحمه، بل ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إنك يا الله متصف بالمغفرة والرحمة، التي يأمل بها هدايتهم، لتحصل لهم منك بسببها مغفرتك ورحمتك بعد هدايتهم. وسياق قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يعطي دلالة طلب المغفرة لهم، بل وصف الله تعالى بأنه غفور رحيم، فيأمل بها هدايتهم لتحصل لهم المغفرة والرحمة.

ثم زاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام في تضرعه ودعائه لله تعالى، متقدماً بما قام به من إسكان زوجته هاجر وابنه إسماعيل بمكة، مع وصف حال أرضها، استعطافاً لله تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ

(١) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٢٦٨/٤)

﴿إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فبدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام مناجاته لربه تبارك وتعالى بتكرير النداء، الذي يفيد المزيد من التضرع والخضوع ﴿رَّبَّنَآ ﴾ وليفيد فضل إعادة وتكرير لفظ الجلالة عند الدعاء ، مثل: يا الله، وكذلك ربنا، أو ربي. وكذلك التنوع بحسب المقام ﴿رَبِّ ﴾ ﴿رَّبَّنَآ ﴾ بإضافة ضمير الجمع. ثم يقرر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعائه ما كان منه من الطاعة والاستجابة لأمر ربه تبارك وتعالى ﴿إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ فقد أسكنت بعض ذريتي، لأنه عليه الصلاة والسلام أسكن إسماعيل وأمه هاجر بمكة، وأما إسحاق فتركه بالشام، ثم وصف الوادي الذي أسكنهم فيه بواقع حاله ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ فهو وصف لحال موقع مكة، بأنها وادي: وهو الأرض بين جبلين، أو بين سلسلة من الجبال، قد تطول وقد تقصر، وهو الموضع الذي تسيل وتجري فيه مياه الأمطار، ولكن صفة هذا الوادي الذي هو مكة، ليس مأهولاً بالزراعة ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ لا نبات فيه، وذلك لكثرة الجبال بمكة حفظها الله تعالى ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قد قيل في ذلك أقوال، منها أن معناه: عند بيتك المحرم الذي كان قبل أن ترفعه من الأرض، حين رفعته أيام الطوفان. ومنها: عند بيتك المحرم الذي قد مضى في سابق علمك أنه يحدث في هذا البلد، وقوله ﴿ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ على ما قاله قتاده، معناه: المحرم من استحلال حرمات الله فيه، والاستخفاف بحقه[1] وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: إنما سميَّ محرماً، لأنه يحرم استحلال حرماته، والاستخفاف بحقه، فإن قيل: ما وجه قوله تعالى ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ﴾ ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الله تعالى حرم موضع البيت منذ خلق السماوات والأرض، قاله ابن السائب. والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يُرفع أيام الطوفان. والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير[2]

وورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في شأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وزوجته أم إسماعيل، أنه: جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة. وهي الشجرة الكبيرة، فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسِقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم اين

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩٧/١٣)

(٢) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٢٦٩/٤)

تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء. فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه، فقال ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1]

ثم بعد أن ذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام صفة البيت ومنزلته ومكانته، أوضح الهدف ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإني فعلت ذلك يا ربنا، كي تُؤَدَّى فرائضك من الصلاة التي أوجبتها عليهم في بيتك المحرم[2] وفي ذكر الصلاة بالخصوص من بين العبادات، دليل على منزلة الصلاة ومكانتها، ودليل على فضلها الزائد في بيت الله الحرام عن غيرها، لأن علة إسكان إبراهيم لزوجته وابنه إسماعيل ليقيموا الصلاة، وفي ذلك دلالة على فضل مكة، ومنزلتها العظيمة، وقد أكدتها وبينتها هذه الآية الشريفة الكريمة، ومن ذلك رحيل إبراهيم عليه السلام وزوجته وابنه إسماعيل من الشام إلى مكة، من أجل أن يجعلهم يقيمون الصلاة فيها، وكذلك فيها بيت الله تعالى المحرم، وأنه عَزَّ وجل قد حرم مكة قبل ارتفاع البيت وإقامته، إضافة إلى طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الله تعالى أن يجعل الناس تَفِد إلى هذا البيت المحرم ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ ومن جميل ودقائق هذا البيان وعمق معانيه ودلالاته أنه عَبَّر بالأفئدة، التي هي القلوب، لأنه أعظم وأشرف عضو في الإنسان، كما قال صلى الله عليه وسلم (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صَلُح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[3] وخص نوعاً من الناس ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأن ﴿مِّنَ﴾ تفيد التبعيض، أي بعضاً من الناس، وليس كلهم، فالبعض هم المؤمنون الموحدون، المسلمون.

وكلمة ﴿تَهۡوِيٓ﴾ تفيد ميل النفس، ونزوعها، حتى تجيء إليه في رغبة ومحبة وشوق، وإسراع، وأما ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ أي: إلى من أسكنهم عند بيت الله المحرم، فيحصل بتكرار الناس عليهم الاستئناس، والانتعاش. وبالفعل أصبح البيت الحرام يستهوي قلوب المسلمين من جميع أنحاء الأرض، في شوق يجدونه في

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤٦٢/٢-٤٦٣) برقم (٣٣٦٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩٨/١٣)

(٣) البخاري، الجامع الصحيح (٣٤/١) برقم (٥٢)

قلوبهم، فيدفعون أعز وأغلى ما يملكون من أجل تحقيق وإشباع هذا الشوق، فإن الشوق إلى مكة آية من آيات الله تعالى، يجدها المسلم في قلبه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، أي: أن يجعل قلوب بعض خلقه تنزع إلى مساكن ذريته، الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع، عند بيته المحرم، وذلك منه دعاء، بأن يرزقهم حج بيته الحرام... وعن سعيد بن جبير رضي الله عنهما ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ ولو قال: أفئدة الناس تهوي إليهم، لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ فهم المسلمون. وعن مجاهد رحمه الله تعالى، قال: لو كانت أفئدة الناس، لازدحمت عليه فارس والروم(١) مما يدل على غزارة المقاصد في سياق القرآن الكريم، وإعجازه في كل لفظة من كلماته وحروفه. وبلاغة تراكيب كلماته، وسياق جمله، وعظيم بيانه، وجلالة مقاصده، وعظيم شأنه وسلطانه.

ثم سأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه أن يرزق ذريته، ومن يأتي لمكة من الخير ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأصبحت مكة، الوادي، غير ذي زرع تأتي إليها الثمرات من جميع أنحاء الدنيا، ومن جميع الأصناف والأنواع، فلا تغيب عنها محاصيل الصيف والشتاء، بفضل الله تعالى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي: رجاء أن يتحقق منهم الشكر لك، والثناء عليك، على ما أنعمت به عليهم يا الله، سواء ما كان من الثمرات، أو ما أنعمت به عليهم من سُكنى مكة، صاحبة المنزلة الرفيعة.

وكلمة ﴿يَشْكُرُونَ﴾ تفيد استمرارية الشكر منهم، فهو شكر ليس منقطع، بل متكرر لا يتوقف، مما يفيد أهمية المداومة على الشكر والثناء على الله تعالى بما أنعم وأعطى، فإن الشكر دلالة الاعتراف لله تعالى بما أعطى، وهي مفتاح للمزيد من فضل الله تعالى. ومفهوم السياق يتضمن الرجاء من الله تعالى أن يجعلهم شاكرين ربهم على ما أنعم به عليهم، وبما خصهم من الفضل.

ثم يتدرج خليل الله تعالى ونبيه ورسوله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مناجاته لربه، بِذِكر ما يعتقد في نفسه عن ربه عَزَّ وجل من كمال العلم، وما في وجدانه لمفارقة إسماعيل وأمه، وفي هذا منهج وأسوة في الاعتقاد والدعاء، بتقرير علم الله تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فبدأ مناجاته بإعلان الربوبية لله تعالى ﴿رَبَّنَآ﴾ فهو رَبُّ كل شيء ومالكه، وفي تكرار النداء بها تكرير لتقرير وتأكيد الربوبية لله تعالى، وحده لا شريك له. مع إفادة المزيد من التضرع

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٩٨/١٣)

والتذلل، والالتجاء له عَزَّ وجل، ثم قرر إبراهيم عليه الصلاة والسلام اعتقاده بعلم الله تعالى الكامل الشامل. ومن قوة البيان أنه قَصَرَ ذلك على الله تعالى، مع تأكيده بحرف التأكيد **(إن)** المتصدر قوله ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ فإنك أنت وحدك الذي تعلم ﴿ **تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** ﴾ ثم عززها بشمولية علم الله تعالى، وإحاطته بكل شيء علما ﴿ **وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ** ﴾ ومن جميل البيان ودقته، أنه أوضح وبين اعتقاده بعلم الله تعالى بأمرين: الأول: بنون التوكيد ﴿ **إِنَّكَ** ﴾ والثاني: بتقرير اعتقاده بعلم الله تعالى ﴿ **تَعْلَمُ** ﴾ التي أفادت العلم المستمر الذي لا ينقطع ﴿ **تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** ﴾ فعلمك يا الله متحقق على ما نُسره ونخفيه في أنفسنا، وما نعلنه منه ونظهره، فكلاهما عندك سواء، فلا يختلفان أبداً ولا يتفاوتان، فإنك تعلم ما يختلج في صدورنا ونكتمه ونضمره في نفوسنا، ولا نبوح به، ولا نخرجه، وما نعلنه ونظهره. وفي تقديم الإخفاء على الإعلان، ما يفيد أنه قد تقرر في نفوسنا علمك بالخفايا، حتى أصبح مستوياً مع علمك بالظاهر والمعلن. ثم من جميل البيان ودقته أنه عمم بعد أن فَصَّل ﴿ **وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ** ﴾ فليس هناك شيء يخفى على الله تعالى، سواء كان في الأرض، أو في السماء، فكله معلوم عند الله تعالى. فلا يحتجب عن علمه ومراده شيء سبحانه وتعالى.

مما يفيد أنك يا الله مع عظيم وسعة علمك ودقته، فإنك تعلم ما في وجدي وقلبي من فراق إسماعيل وزوجتي، وما لهم في قلبي من المحبة، وما هو مُعلن مني لهم، وما هو كامن في سرائر فؤادي، وكذلك ما تعلمه في قلوبهم عليَّ، وما في قلوبهم مما يختلج فيه عن هذا الوادي المقفر، فإنه لا يخفى عليك ما أخفيه عن غيري مما أنا فيه، ومما هم فيه، فرجاء لطفك في حالنا، إنها مناجاة ممتلئة بالتمجيد لله تعالى، وإظهار العبودية لله تعالى، والتذلل والافتقار والتخشع لعزته ولعظمته عَزَّ وجل. لتكون علماً للغير، كيف يكون علمه عن ربه تبارك وتعالى، وكيف تكون مناجاته عَزَّ وجل.

ومن جميل تركيب الكلام وبديع سياقه أن جملة ﴿ **وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ** ﴾ قد تكون من قول إبراهيم، وقد تكون من كلام الله تعالى، فإن كانت من كلام الله تعالى، فإنها تكون بذلك تأكيداً وثناء وتصديقاً لكلام إبراهيم، عند قوله ﴿ **رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ** ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: قيل هو من قول إبراهيم، وقيل هو من قول الله تعالى[1] فإن كان هو من قوله

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٩/٢٤٦)

تعالى فيكون تقريراً وتأكيداً لما سبقه من قول إبراهيم، وإن كان من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فهو تقرير منه بحقيقة علم الله تعالى، ولكن عمق البيان في سياقه المعجز، أنه جمع الدلالتين من غير امتناع ولا تعارض، ليتأكد به أنه إعجاز بياني عظيم.

ثم ينتقل رسول الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الثناء والشكر لله تعالى بما أنعم عليه من نعمة الولد، وهما: إسماعيل وإسحاق، وذلك على كبر سنه، وسن زوجته، لتشمل النعمة خصوصية التخصيص والتكريم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ فبدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام شكره لله تعالى بالحمد ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي: الشكر الخالص لله تعالى، دون غيره، وهو ثناء على الله تعالى باسمه العظيم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ولفظ الجلالة ﴿لِلَّهِ ﴾ تفيد حصر هذا الحمد له عَزَّ وجل، لا يشاركه غيره فيه، وهو اعتراف بأن نعمة الولد خالصة من الله تعالى، والتي زادها تأكيداً وحصراً بأداة ﴿ٱلَّذِى ﴾ فهو الذي لا غيره وهب لي على تقدم السن: إسماعيل وإسحاق ﴿ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ قال الزمخشري رحمه الله تعالى: روي أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق، وهو ابن مائة وثنتي عشرة سنة، وقد روي: أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين، وإسحاق، لتسعين. وعن سعيد بن جبير: لم يُولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة، وإنما ذكر حال الكبر لأن المنَّة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عَقِب اليأس من أَجَلّ النِّعم، وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ كان قد دعا ربَّه وسأله الولد فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته[١] ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ والمعنى أنك لكثير إجابة الدعاء لمن يدعوك[٢] فهو إعلان وبيان بأن الله تعالى يجيب الدعاء، ومبتدئاً ذلك البيان بحرف ﴿إِنَّ ﴾ الذي يفيد التأكيد الذي لا شك فيه، ولا ريب في تقريره واعتقاده اعتقاداً جازماً.

ومن الفوائد أن في تقديم إسماعيل على إسحاق دليل على أنه الأكبر، وبالتالي هو الابن الذبيح، كما ورد في سورة الصافات ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ أي: أخبر إبراهيم ابنه إسماعيل بأنه قدر رأى في منامه أن يذبحه. لأن رؤيا الأنبياء حق، وهو وحي من الله تعالى.

(١) الزمخشري، الكشاف (٥٤٩/٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١١٣/٣)

ثم يتدرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في المسألة ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِىۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ فكرر النداء بدلالة الربوبية لله تعالى ﴿رَبِّ ﴾ مما يفيد أهمية تكرار الدعاء بلفظ الربوبية عند تكرار المسألة ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فسأل الله تعالى أن يجعله قائماً بأداء الصلاة، على الوجه الذي أمر به الله تعالى وشرعه في دينه، ثم شمل ذريته بالدعاء لإقامة الصلاة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ فاجعل يا الله من ذريتي من يقيم الصلاة لك، مما يبين أهمية شمول الذرية بالدعاء في الخير، وخاصة في شعائر الدين.

وعن جملة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وإنما خص البعض من ذريته لأنه علم أن منهم من لا يقيمها كما ينبغي[١] فدعا لهم بتمام الإقامة. ومن دقائق البيان أن جملة ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ تفيد المحافظة على الصلاة، والمداومة على أدائها، وإقامة جميع ما يتعلق بها، فإن دلالة ﴿مُقِيمَ ﴾ يستجمع كمال الأداء، والعناية بالنهوض لها، والعزم، والامتثال، والنشاط في أدائها على سبيل الاستمرار الذي لا ينقطع، ولا يتوقف.

ثم ختم دعاء الطلب والمسألة بسؤال القبول من الله تعالى ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ مما يبين أن الإنسان المؤمن، مع بذله الجهد في أداء العبادة، فإنه يلزمه سؤال الله تعالى القبول، لما في أداء الإنسان من القصور والخطأ والنسيان، فيسأل الله تعالى أن يتقبل منه ما قام به من عمل أو قول، ومن جميل البيان قوله ﴿رَبَّنَا ﴾ بصيغة الجمع ولم يقل كما بدأ في الدعاء بصيغة المفرد ﴿رَبِّ ﴾ لأنه طلب القبول له ولذريته، بأن يتقبل الدعاء على وجه العموم، والتي منها إقامة الصلاة.

ثم يتدرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الدعاء إلى طلب تحصيل المغفرة ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ فكرر استفتاح الطلب بتقرير الربوبية لله تعالى ﴿ رَبَّنَا ﴾ وذلك لإظهار المزيد من التضرع والخضوع في المسألة ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فشمل في سؤال المغفرة التي هي طلب محو الذنوب عن نفسه ووالديه والمؤمنين. وهذا قبل

---

(١) المرجع السابق (١١٣/٣)

أن يتبرأ من أبيه، بعد أن تبين كفره، وأما ﴿ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإنها تشمل جميع المؤمنين ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ أي اغفر لي وللمؤمنين يوم تحاسب عبادك، فتجازي كلاً بعمله، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. ومن دقائق البيان أن كلمة ﴿ يَقُومُ ﴾ تعطي صورة النهوض، كما تعطي جملة ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ ثبات الحساب، واستقامته، وعدالته، ولتدل على قيام الناس، ووقوفهم للحساب، فهي جملة مؤثرة في معناها، وقوة وصفها ليوم المحشر، وبلاغة رسمها، وقوة تأثيرها على النفوس، فإنها تستثير وتستلهب الهمم نحو الحذر من ذلك اليوم بالاستقامة والطاعة لله تعالى.

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ
ٱلۡأَبۡصَٰرُ (٤٢) مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ
يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ
أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ (٤٤) وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ (٤٥) وَقَدۡ
مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ (٤٦) فَلَا
تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ (٤٧) يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (٤٩)
سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠) لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ
ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٥٢) ﴾

ثم ينتقل السياق العزيز إلى التحذير والوعيد للمشركين، وعموم الكافرين من خلال مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلهم عنهم ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ فإن الله تعالى ليس ساهياً، ولا مهملاً للظالمين، وما هم فيه من الجحود والكفر والشرك، مما يفيد التهديد والوعيد الشديد للكافرين من المشركين وغيرهم بأسلوب التعريض بالوعيد، والتحذير

من الغرور بحلم الله تعالى، فعليهم أن يفهموا بأن إمهال الله تعالى لهم ليس عن غفلة، ولا عن سهي عنهم، وإنما تأخيرهم هو ليوم شديد الهول والخطب. وجملة ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ تفيد تقرير وإثبات ما نفى عنه الحسبان، فقد نفى حسبان الغفلة من الله تعالى عن عمل الظالمين، مع إثبات كمال علم الله تعالى بعمل الظالمين، وإحاطته به وتقريره من لدنه عَزَّ وجل. كما أن فيه نفي الغفلة عن الله تعالى، وإثبات كمال الإحاطة التي لا يغيب منها شيء عن الله تعالى. وقد استجمعت دلالة ﴿ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ جميع المتلبسين بالظلم على اختلاف أنواعه وأنواعهم، وسواء كان في الكفر، أو الشرك، أو ظلم العبد لغيره من العباد، وإن كان المقصود به في هذا المقام أهل الشرك، ولكن قوة البيان، ونسق الخطاب، ومساحة دلالته تستوفي أنواعه ودرجاته، فيشمل الشرك وما دونه. فإن معاملة الله تعالى لهم هي معاملة الرقيب الحسيب الحليم، وليس عن غفلة عنهم، فتنزه الله سبحانه وتعالى عن ذلك. واستوفت جملة ﴿ عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ جميع أنواع العمل المتضمن للظلم، فإنه لا يخفى عليه من عملهم شيء البتة.

وإنما التأخير هو تأخير استيفاء لكامل أعمالهم ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فإنما تأخير عقوبتهم من الله سبحانه وتعالى هو من أجل استيفاء ما يستحقون في يوم شديد الأهوال، إلى درجة أنه ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ أي ترتفع أبصار أهل الموقف، وتشتد بامتداد النظر، لما تراه من شدة الأهوال، فتذهل الأبصار مفتوحة، فلا تتحرك، وبالتالي فإنها لا ترمش، ولا تغمض فيه العين من شدة الدهشة، التي يذهل معها البصر. وفي هذا وعيد شديد للظالمين بشركهم وكفرهم، وفيه كذلك تسلية للمظلوم، بأن الله تعالى قد يؤجل عقاب الظالم ليوم يود المجرم فيه لو استوفى ما عليه من حق، سواء كان لله تعالى، أو لغيره من المخلوقين.

مما يفيد أن استمتاع الظالم، هو متاع زائل، سوءا كان استمتاعه بالكفر أو استمتاعه بحقوق الغير، وكذلك فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم من ظلم المشركين، والكافرين، فإن كان الله تعالى قد أمهلهم في الدنيا ولم يعاقبهم، فإن عقابهم سيكون أشد وأنكى يوم القيامة.

ثم يصف الله تعالى أهوال ذلك اليوم ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ فهؤلاء المكذبين بك أيها النبي نؤخرهم لذلك اليوم الذي يكونون فيه ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أي: مسرعين، ومشدودي النظر، مع المداومة على ذلك، من غير أن يطرف أحدهم بعينه، قال الزمخشري رحمه

الله تعالى: وقيل: الإهطاع أن تُقبل ببصرك على المرئي، تديم النظر إليه، لا تطرف[١] وهي صورة الخائف، الذي امتلأت نظرته بالذل والهوان مع الخوف الشديد ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ رافعي رؤوسهم، قال الزجاج: رافعي رؤوسهم، ملتصقة بأعناقهم[٢] لأن إقناع الرأس هو رفعه. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: والمعنى: أنهم يومئذ رافعون رؤوسهم إلى السماء، ينظرون إليها، نظر فزع وذل، ولا ينظر بعضهم إلى بعض، وقيل: إن إقناع الرأس نكسه، وقيل: يقال: أقنع: إذا رفع رأسه، والآية محتملة الوجهين[٣] فقد تجتمع فيه صورة الرفع فزعاً، وصورة الخفض ذلاً.

وكذلك تجتمع في حالهم ما وصفهم الله تعالى به، من أنهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، لشخوصها التام، فهي مفتوحة في اتجاه ما تنظره من غير تحريك للأجفان ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: منحرفة لا تعي شيئاً، فهي خالية، ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئاً[٤] فقلوبهم خالية عن العقل والفهم، لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة[٥] ففي هذا البيان صورة لواقع سوف تمر به الخلائق الظالمة، وتحذير وتنبيه، ليأخذ كل إنسان حذره من أهوال يوم القيامة. فهي صورة لحال الإنسان الظالم في ذلك الموقف، بما يدلل على شدة هوله. فنسأل الله تعالى النجاة بمنه وفضله وهدايته وتوفيقه، وحسن الخاتمة.

ويخاطب الله تعالى رسوله ونبيه صلى الله عليه وسلم بأن ينذر الناس جميعاً بيوم القيامة، وما فيه من العذاب والأهوال ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ وكذلك يا أيها الرسول حَذِّر الناس عموماً من عذاب يوم القيامة ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ فحذر الناس وخوفهم بيوم القيامة، الموصوف بقوة العذاب، وورد وصف وقوع العذاب بصفة المجيء، لإفادة

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٥٥١)
(٢) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٤/٢٧٢)
(٣) الشوكاني، فتح القدير (٣/١١٥)
(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٧١١-٧١٣)
(٥) الشوكاني، فتح القدير (٣/١١٥)

وقوعه في قادم أمرهم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وإنما خصه بذكر العذاب، وإن كان فيه ثواب، لأن الكلام خرج مخرج التهديد للعصاة[١] فتعيين يوم القيامة بالعذاب لما يخص العصاة.

ثم يبين الله تعالى حسرة العصاة، وما يقولونه عند رؤيتهم العذاب، فينحصر مطلبهم وأمنيتهم التي يتمنونها من الله تعالى، أن يعيدهم للدنيا حتى يطيعوا ويعملوا الصالحات ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فيقول الذين كفروا من المشركين وغيرهم: أمهلنا يا ربنا زمنا من الوقت غير بعيد، حتى ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ فنستجيب لما دعوتنا إليه على ألسنة أنبيائك المرسلين ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ فنتابع ونعمل بما طلب الرُّسُل منا، فنتدارك ما كان من إهمالنا، وعنادنا وظلمنا، من الكفر والشرك والمعاصي. إنها أمنية يوم لا تنفع الأمنية منهم، فيرد الله تعالى عليهم بما كان من نكرانهم لهذا اليوم، وكفرهم بالبعث، وبيوم القيامة التي عاينوها معاينة حقيقة، كما أبلغتهم الرُّسُل ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ألم يحصل منكم الحلفان في الدنيا بأنكم لا تُبعثون، وليس لكم زوال عن هذه الدنيا، وأنكم تعيشون وتموتون فيها، ولا تخرجون منها أبداً، فكفرتم بالبعث، وكفرتم بيوم القيامة، وبالعذاب والجزاء.

وفي هذا تنبيه وموعظة، وتحذير من ذلك اليوم. وتوبيخ وتقريع لهم في ذلك اليوم على ما كان منهم يوم السعة في الدنيا ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ فكان لسان حالهم في قوة عنادهم كمن أقسم على ذلك. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: قيل إنه لا قسم منهم حقيقة، وإنما كان لسان حالهم ذلك، لاستغرقهم في الشهوات، وإخلادهم إلى الحياة الدنيا، وقيل قسمهم هذا هو ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله عَزَّ وجل في سورة النحل ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨﴾[٢] فقد يكون القسم حصل من بعضهم، وأن منطوق البعض الآخر في حالة من الإصرار، حتى لكأن لسان حاله، هو حال من حلف بأنه لن يخرج من الدنيا بعد موته. والله تعالى أعلم.

---

(١) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٢٧٣/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١١٦/٣)

ومن إسراركم على كفركم، أنكم نزلتم وأقمتم في منازل مَن نالهم العذاب لكفرهم ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ فقد سكنتم في منازل الذين أصابهم العذاب لكفرهم ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ فسكنتم في الدنيا في نفس مساكن الذين تابعتموهم في الكفر، من الأمم التي كانت قبلكم، أولئك الذين ظلموا أنفسهم، ولم تعتبروا بهم. فقد تساويتم معهم في الظلم. وقد كان سكان الجزيرة العربية يمرون على ديار عاد وثمود، ويشاهدون أماكن أولئك الظالمين الذين حل بهم العذاب، فيجلسون ويستريحون فيها.

مما يفيد أنكم لم تتعظوا بهم، بل دليل على العناد منكم للمرسلين عليهم الصلاة والسلام. بل واتضح لكم من آثارهم صورة العذاب الذي نالهم منا ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ فقد علمتم كيف أهلكناهم، حين عتوا على ربهم تبارك وتعالى، وتمادوا وبالغوا في كفرهم وغيهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ وضرب الله تعالى لكم بهم الأمثال الكثيرة، والمتعددة في كتابه الكريم. فلم ترعنوا، وتماديتم في طغيانكم كما تمادوا، فاستحققتم ما ترون من العذاب. مما يفيد أهمية الاتعاظ مما يرى ويشاهد الإنسان من آيات الله تعالى، وأن يحذر من ذلك اليوم، فقد ضرب الله تعالى لعباده الأمثال المتنوعة في القرآن الكريم، فقد قامت الحجة والبراهين منه عَزَّ وجل لعباده.

ثم يخبر الله تعالى بما كان من الظالمين من القوة في المكر ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ فقد كان منهم الخديعة بالمكر العظيم في رد الحق، ومناصرتهم للباطل وترويجه، ومحاربتهم للحق بالباطل عن طريق المكر والخديعة ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ ﴾ فقد ثبت منهم فعل المكر، وهو الخداع بالتصرف خلاف المقصد، وبإظهار الماكر خلاف ما يُخفي وما يُبطن، مع استخدام أسلوب التحايل ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ أي: فعلوا المكر المعتاد منهم، مما يدل على أنهم استفرغوا فيه وسعهم، فلم يتوانوا في استجماع قوة جهدهم في مكرهم، وهي جملة توضح أن مكرهم مُعَد مسبقاً، فهو مخطط له، ومنظم، ومُرَتَّب له بمنهجية في الأداء ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ ﴾ فقد مكروا مكرهم الذي أعدوه، فكلمة المكر الثانية ﴿مَكْرَهُمْ ﴾ دلت على الاعداد له مسبقاً، والمكر الأول ﴿ مَكَرُواْ ﴾ دليل على التنفيذ والأداء، وهذه دقة في بيان حالهم من خلال جملة واحدة، مما يدل على غزارة

البلاغة البيانية في القرآن الكريم، وخلوه من الزيادة في الألفاظ لقصد البيان، مما يدل على أن القرآن الكريم كلام معجز حتى في بيانه، فلا يستطيع الخلق أن يأتوا بمثله حتى في نوع بلاغة البيان، فضلاً عن أوجه الإعجاز الأخرى.

ويرد الله تعالى بالبيان الشافي الكافي عن مكرهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ وعند الله مكرهم الذي يجازيهم به، وأن جزاء مكرهم هذا سيكون عند الله عَزَّ وجل، وكذلك تفيد أن مكرهم يعلمه الله تعالى، فهو مكتوب عنده عَزَّ وجل، مما يفيد الوعيد والتهديد بالعقوبة لهم، فهي تحمل مع قوة تهديدها وأثرها، فإنها تحمل قوة بيانية عظيمة في غزارة دلالتها.

ومن مكر كفار مكة، محاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وسلم، فهي شاملة في دلالتها لكل ماكر ظالم ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ فهذه صورة لمكرهم من حيث القوة والضعف، قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال[١] فهو أضعف وأهون، فهذه صورة لقوة مكرهم، ومع ذلك لم ينتفعوا وينالوا به خيراً، بل كان وبالاً عليهم، فلو بلغ مكرهم من قوته إزالة الجبال لما زالت ولما تحركت، ليفيد أن من يمكر برسوله وبالمؤمنين وبالإسلام، فإنه مهما بلغ من قوته، فسيكون وبالاً على الماكرين أنفسهم. مما يفيد أن الله تعالى مخزي ومُخَيِّب مكر الماكر الظالم، وأن مكره سيعود عليه وبالاً، فإن مكرهم ضعيف القوة أمام قوة الله تعالى وإرادته، فلن يتحقق بمكرهم مقاصدهم. مما يفيد ثبوت دين الله تعالى، وأن ثبوته كثبوت الجبال الراسيات، مهما كانت قوة مكر أعداء دين الله تعالى.

ويخاطب الله تعالى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وغيره تابع له صلى الله عليه وسلم ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ فكما أن الله تعالى ليس بغافل عما يعمل الظالمون، فكذلك أن الله تعالى لا يخلف ما وعد به رُسُلَهُ من الانتقام من الظالمين، ونصر المرسلين ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ وجملة ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ تفيد تقرير وإثبات ما نفى الحسبان والظن عنه، إذ نفى به سبحانه وتعالى حسبان إخلاف ما وعد به رُسُلَهُ جَلَّ جلاله. ليتأكد ويتحقق به إثبات استيفاء الوعد وتحققه منه تبارك وتعالى، وتقريره.

وفيه كذلك نفي مخالفة الوعد من الله تعالى، مع إثبات كمال عزته وقدرته وقوته التي أكدها بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ بأن الله تعالى عزيز ومنتقمٌ ممن يكفر به، ويُعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان سبحانه وتعالى. وصفة العزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣/٧٢٣-٧٢٤)

غالب على أمره سبحانه وتعالى. وأيضاً ﴿ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ فينتقم ممن يكذب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. والانتقام هو العقوبة والجزاء الرادع الشديد على مخالفة عظيمة جسيمة، ولذلك سَمَّى الله تعالى أولئك المعاقَبين بما يناسبهم من صفات الباطل والكفر.

فخاطب الله تعالى عباده من خلال مخاطبة نبيه صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك رفع لمنزلته صلى الله عليه وسلم، وأنه عَزَّ وجل ناصره، وناصر من معه من المؤمنين، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وإثبات معيته تبارك وتعالى له، وكذلك فيه تثبيت للمؤمنين الذين آمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم، وتعزيز وبشارة لهم بإنفاذ ما وعد به نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بإظهاره ونصره على من عاداه. كما أن فيه تهديد ووعيد لمن بقي على كفره وشركه ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ فأفاد الوعد الكريم بأن الله تعالى محقق لك ما وعدك به أيها النبي من النصر على من عاندك وعاداك.

ومن جميل البيان ودقته أن جمع الله تعالى الرُّسُل، بالرغم من انتهاء أمرهم ورسالتهم، وقد تحقق لهم ما وعدهم به سبحانه وتعالى، فنصرهم الله تعالى، وأهلك الظالمين، فيكون جمع النبي صلى الله عليه وسلم معهم، لإفادة المماثلة، فكما نصرناهم سننصرك معهم، فجمعت الوعد له صلى الله عليه وسلم بتحقق النصر، وجمعت وفاء الله تعالى لمن سبقه من المرسلين، وهذه غاية في إبداع البيان، وبلاغة الكلام، فسبحان من أعجز عباده بقوة بيانه. ومن جميل البيان وعِظَم دلالته أن أخر جَلَّ جلاله الرُّسُل وقدم الوعد، فلم يقل سبحانه وتعال: فلا تحسبن الله مخلف رُسُلَه وعده، بل قال تعالى ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ﴾ لإثبات قوة وفاء الوعد للموعودين به، وهم الرُّسُل، قال الزمخشري رحمه الله تعالى: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً، ثم قال: ﴿ رُسُلَهُۥٓ ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً، وليس من شأنه إخلاف المواعيد، كيف يخلفه رُسُلُه الذين هم خيرته وصفوته[1] فالتقديم والتأخير يحمل مغزى عميق البيان والدلالة.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بصفاته المؤكدة على أنه لا يخلف الميعاد، فإن من امتلك العزة كاملة، والقدرة المستوفاة الكاملة فإنه ليست هناك ثمة لإخلاف الوعد ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ فإن الله تعالى عزيز، غالب لا يغلبه أحد، وذو قوة لا يقدر عليها أحد، وينتقم لأوليائه، انتقام العزيز القدير، وأن انتقام العزيز ليس مثل انتقام من لا يملك كمال العزة مع كمال وتمام القدرة.

(١) الزمخشري، الكشاف (٢/٥٥٤)

ثم يبين الله تعالى مزيداً من وصف يوم القيامة، الذي تذهل فيه الأبصار ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ففي ذلك اليوم ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي تذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها، وتُمد مد الأديم، روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل تُبَدَّل بغيرها، بيضاء كالفضة، وروى هذا المعنى ابن مسعود رضي الله عنه، وقيل تُبَدَّل ناراً، وقيل تُبَدَّل بخبزة بيضاء، يأكل منها أهل الإسلام حتى يُفرغ من حسابهم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وأما السماوات فتُبَدَّل إلى ذهب، فتُجعَل من ذهب، وقيل تصير جناناً، وقيل تكوير شمسها، وتناثر نجومها، وقيل: اختلاف أحوالها، فمرة كالمهل، ومرة تكون كالدهان[١] فقد يكون التبديل في صفات الأرض والسماوات، وقد يكون في ذاتها، فتتبدل كلياً أو في صفاتها، وقد قيل المراد تبديل صفاتها، وبه قال الأكثر[٢] فلا ترى فيها جبال، ولا أودية، ولا آكام، ولا شجر ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ أي: ظهروا من قبورهم.

ومن دقة السياق أنه جاء بصيغة الماضي ﴿وَبَرَزُواْ ﴾ ليفيد تحقق وقوعه، وكأنه قد حصل، فهي صورة للواقع الذي سيؤولون إليه، في مشهد كأنه وقع. لأن أمر الله تعالى واقع لا محالة كما وصفه وبينه عَزَّ وجل. ومن تناسق واقع ذلك اليوم أن الله تعالى ذكر لذاته العظيمة صفتين عظيمتين ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ الواحد الذي يرد به على مَنْ أشرك بالله تعالى، فإنه واحد لا شريك له، وصفة ﴿ٱلْقَهَّارِ ﴾ الذي يُذل ويقهر ويكيد كل من تعالى على دينه وعلى المرسلين، فيقهرهم قهراً لا حيلة ولا قدرة لهم به، فيسلب منهم كل قوة وقدرة، مقهورون من كل وجه. ويتضمن ﴿ٱلْقَهَّارِ ﴾ صفة المبالغة، التي تفيد كثرة القهر لمن عانده، بإرغامه، وإذلاله وإهانته.

ثم يخبر الله تعالى بحال المجرمين الكافرين ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ببيان حال المجرمين الكافرين المعاندين، ليكون تسلية لهم، ووعد بما سيكون عليه حال أولئك المجرمين، وتهديد ووعيد لهم بأن عليهم العودة للحق. وجاء بيان الرؤية بصيغة المضارع ﴿ وَتَرَى ﴾ ليفيد استحضار صورة حالهم يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾

---

(١) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٢٧٦/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (١١٨/٣)

أي مشدودين بعضهم إلى بعض ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أي: في الأغلال والقيود ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ فثيابهم التي يلبسونها ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي: من النحاس، قاله ابن عباس رضي الله عنهما[1] أي: النحاس المذاب ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: تعلوا وجوهم النار، فتلفحها وتحرقها.

ثم يعلل الله تبارك وتعالى ذلك الجزاء الذي لحق بالمجرمين ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ فإن ذلك الجزاء من الله تعالى لهم، لقاء ما كسبوا من الآثام والمعاصي التي استحقوا بها ذلك العذاب، فهو جزاء موافق لما كسبت كل نفس من خير أو شر، فمن عمل خيراً لقي خيراً، ومن عمل شراً وجد شراً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فإن الله تبارك وتعالى لا تحول كثرة العباد من سرعة الحساب يوم الموقف، فلا يشغله محاسبة أحد عن أحد.

ثم يختم الله تعالى سورة إبراهيم بموعظة تحمل دلالة البلاغ والإنذار للعباد، بما يبين ويوضح لهم حقائق الدنيا، وحقائق الآخرة، في تدرج عميق المعاني والدلالات، فأولها: تحصيل كمال البلاغ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ والثاني: تحصيل ما تحقق به الإنذار ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ والثالث: تحصيل العلم بأعظم علم، وهو وحدانية الله تعالى ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ والرابع: دفعهم إلى التذكرة والامتثال ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فبدأ التوجيه الكريم بتحصيل البلاغ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ فهذا الذي أُنزل إليك أيها النبي بلاغ، وعليك أن تبلغ الناس به، بما يدل على كفايته في تحقيق البلاغ والبيان المبين، لما اشتمل عليه من تنوع أساليب البيان والإنذار والمواعظ، والترغيب والترهيب، والقصص، والعبر بالأحداث المتنوعة، والمعجزات التي تضمنها القرآن الكريم في كل وجه. واسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يخص سورة إبراهيم، وكذلك يعم جميع سور القرآن الكريم، فباعتبار ما سبق من السورة، فهو خاص بها، وباعتبار عموم السياق ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ ما يفيد مضمون عموم القرآن الكريم، وهذا من بلاغة القرآن الكريم في تراكيب سياقه، بحيث يحقق الدلالة من كل وجه، وفي غير تضاد ولا تعارض، مما يبين إعجازه البياني. كما جمعت كلمة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ جميع جنس الإنسان، العربي وغير العربي، والرجال والنساء، والصغير والكبير.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٧٤٣/١٣)

فهذا الذي أنزل إليك أيها النبي، صلى الله عليه وسلم متضمن لكفاية البلاغ، وكذلك ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ فهو مشتمل كذلك على الإنذار بكمال الوصف للعقوبة، وتصوير حالها، وحال الإنسان يوم الجزاء والحساب، وكأنه يعيش ذلك اليوم ويشاهده، لقوة البيان، وقوة التوضيح، وكذلك لما تم بيانه عن أحوال الأمم السابقة، وما حصل لهم من الهلاك والعذاب. فليخافوا مما أُنْذِرُوا به ومنه. وكذلك إضافة إلى البلاغ والإنذار، فإن ما أنزل إليك هو ليعلموا به وحدانية الله تعالى ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وليحصل به العلم التام أن الله تعالى إله واحد، لا شريك له، فلا مَعْبُود سواه سبحانه وتعالى، ولا يُشرك به أحد أبدا. فقد بين وأضح تبارك وتعالى بالأدلة الكونية، والأدلة البيانية وحدانيته، وانفراده بالملك والألوهية والربوبية ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فعلى أصحاب العقول أن يتعظوا ويتذكروا بهذا البلاغ العظيم، والإنذار الكافي الوافي. فلا يغتروا بالدنيا وتحصيلها، فيلهيهم ذلك عن حقيقة الآخرة التي عرفوها تمام المعرفة. فقد ختم الله تعالى هذه السورة بموعظة غاية في بلاغة البيان، التي يستجيش بها الفؤاد، وتتفاعل معها العواطف، وتتدبرها القلوب والعقول.

وبفضل الله تعالى ونعمته تم الانتهاء من سورة إبراهيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد.